موجـز

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف

مصطفى وهبه

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت ٥٥٧٨٨١

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

تليفون: ٣٥٧٨٨٢

مقدمة

تعتبر الحروب الصليبية علامة من أبرز العلامات وحدثاً من أكبر الحوادث فى التاريخ الإسلامى كله، بل لا نبالغ إذا قلنا من أكبر حوادث التاريخ العالمى.

فالذى فكر فى الحروب الصليبية «أو الحملات الصليبية» والذى قام بها هو الغرب المسيحى بتحريض وتوجيه من البابوية «السلطة الكبرى فى أوربا فى ذلك الوقت»، بغرض الإستيلاء على المقدسات المسيحية فى فلسطين وبخاصة مدينة القدس - التى تتعرض اليوم فى ظل الإحتلال الإسرائيلى لنفس ما تعرضت له منذ تسعة قرون.

بدأت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى/ أواخر القرن الخامس الهجرى، وإستمرت حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى/ أواخر القرن السابع الهجرى. دون أن ندخل فى إعتبارنا زمن تصفية الوجود الصليبى «أو فلول الصليبين» فى جزائر البحر المتوسط مثل قبرص ورودس.

وقد جاءت البداية الأولى للتفكير فى الحروب الصليبية من جانب أوربا، متواكبة مع سقوط دولة المسلمين فى الأندلس، ومع إستعادة النورمان جزيرة صقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط من أيدى المسلمين، فى وقت كانت فيه الدولة العربية الإسلامية الممثلة سواء فى الخلافة العباسية فى بغداد أو الخلافة الفاطمية فى القاهرة، أو سلاجقة الشام وآسيا الصغرى، تشهد ضعفاً لم تشهده من قبل.

كما تواكبت تلك البداية مع زيادة سكان الغرب الأوربى خلال القرنين العاشر والحادى عشر الميلادين زيادة وصلت إلى الضعف مما جعل هناك إحتياجاً إلى أراضى جديدة ذات موارد إقتصادية جديدة يتوسعون فيها.

وكانت تلك الظروف مناسبة تماماً لينتهزها بابا الفاتيكان آنذاك «أوربان الثانى» ورجال الدين المسيحى ويدعوا إلى القيام بحرب صليبية «أو مسيحية» شاملة على بلاد المشرق العربى الإسلامى، وخصوصاً الشام وفلسطين للسيطرة على المقدسات

المسيحية والأرضى التى عاش ودعا فيها المسيح ابن مريم.

ووجدت دعوة ذلك البابا إستجابة كبيرة من الأوربيين خاصة بعد ما شاع فى ذلك الحين من أن الأتراك السلاجقة يعترضون قوافل الحجاج المسيحيين القادمين من الغرب ويعتدون عليها، كما يعتدون على المقدسات المسيحية.

هكذا كانت بداية التفكير الذى أدى إلى الحروب الصليبية التى بلغت حملاتها أكثر من خمسة عشر حملة «منها ثمانى كبيرة» ودامت نحو مائتى سنة أو يزيد وفى كل مرة كان خط سيرها يتجاوز الألفى ومائتى ميل وإشتركت فيها كل بلاد أوربا المسيحية من انجلترا واسكتلندا فى أقصى الغرب حتى بلاد المجر والرومان، وشملت ساحة معاركها كل بلاد الأناضول«أو آسيا الصغرى» والشام ومصر، بل وليبيا وتونس أحياناً.

وفى أثناء الفترة الطويلة التى إستمرت فيها الحروب الصليبية دخلت عوامل وأهداف أخرى لا علاقة لها بأى مقدسات أو دعاوى دينية مزعومة، منها - بل على رأسها - طمع الكثيرين من نبلاء أوربا وأمرائها فى إنشاء ممالك لهم فى بلاد المسلمين تمكنهم من زيادة ثرواتهم الخاصة ونفوذهم.

وعند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام كانت سنة ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ ، دولة السلاجقة «أو الجناح العسكرى للخلافة العباسية» ، بل والخلافة العباسية ذاتها تعانى مرض الشيخوخة و أوهن من أن تصد عدواناً يقع عليها. وكانت بلاد المسلمين تخلو من دولة موحدة تجمع المسلمين وتوحدهم لمواجهة الخطر الصليبى الزاحف.

وهذا ما جعل الغرب الأوربى ينجح بعد حملتيه الصليبيتين الأولى والثانية فى الإستيلاء على بيت المقدس وإنشاء مملكة صليبيةبه بالإضافة إلى ثلاث إمارات مسيحية، إثنتان منها فى الشام هما: إمارة أنطاكية وإمارة طرابلس، والثالثة فى شمال العراق على الفرات هى إمارة الرها.

ثم إستيقظ العالم الإسلامى من سباته العميق، وغيبوبته، وبدأت حركة نهوض وجهد توحيدى واسع المدى، على يد«نجم الدين إلغازى» صاحب ماردين

من بلاد الجزيرة «الواقعة شمال العراق إلى الشرق من نهر الفرات»، وعماد الدين زنكى صاحب الموصل، ثم إتسع نطاق تلك الحركة الناهضة ليشمل بلاد الشام، وبلغ النهوض أو الإفاقه من الغيبوبة أقصى مدى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى بعد إنضمام مصر إليها على يد نور الدين محمود إبن عماد الدين زنكى، وانتقال قيادة الحركة إلى مصر بعد قيام الدولة الأيوبية على يد مؤسسها صلاح الدين الأيوبى، الذى حقق إنتصاراً حاسماً على الصليبيين فى حطين سنة ١١٨٧م/ ٥٨٣ هـ ، وإستعاد بيت المقدس من أيدى الصليبين.

وكانت حطين هى بداية النهاية للصليبين وحملاتهم على الشرق الإسلامى، على النحو الذى سنراه تفصيلاً.

سنة ١٩٢٠(أى القرن العشرين) وقف«غورو» قائد الجيش الفرنسى الذى غزا سوريا ليفرض عليها قبول الإنتداب الفرنسى ـ وهو الإصطلاح المهذب للإحتلال ـ أمام قبر صلاح الدين الأيوبى فى دمشق وقال: «هانحن قد عدنا يا صلاح الدين». قاصداً بذلك أن الصليبين الذين هزمهم صلاح الدين فى حطين فى القرن الثانى عشر الميلادى، قد عادوا مرة أخرى فى القرن العشرين.

هذا ما حدث سنة ١٩٢٠ بعد أكثر من ٧٠٠ سنة مضت على تصفية وجودهم فى المشرق العربى الإسلامى.

ونفس هذا السيناريو يتكرر اليوم.. فبعد ضياع فلسطين سنة ١٩٤٨.. توشك القدس أن تضيع اليوم، بعدما أعلنتها إسرائيل عاصمة أبدية لها، وما تقوم به إسرائيل يومياً من إجراءات بالقدس لتغيّير ملامحها وتاريخها العربى الإسلامى تحت سمع وبصر كل حكام العرب والمسلمين. فهل نقول ما أشبه اليوم بالبارحة... وهل ما نحن فيه من سبات عميق شبيه بما كان فيه العباسيون والفاطميون فى أخريات أيام دولتيهما؟! وهل هناك إتصال بين ما حدث منذ تسعة قرون «بداية الحملات الصليبية» وبين ما يحدث الآن فى نهاية القرن العشرين؟ وهل السبعة قرون ـ منذ نهاية الحملات لم تكن إلا فترة هدنة بينهم وبيننا؟!.. وهل ما يّدعونه من سلام ووئام ليس إلا خيالات وأوهام؟!.

هذا ما سوف تكشفه لنا حقائق التاريخ عندما نستعرضها من خلال هذا الموجز

لتاريخ الحروب الصليبية.

يبقى ان نشير إلى أننا سوف نلتفت بعد أن نستعرض التاريخ إلى حقيقة واضحة وضوح الشمس، وهى أن السكين الصليبية مضت فى الزبد العربى بسهولة ويُسر بسبب الفرقة السياسية والتشرذم.

وخلال الصراع الطويل على مدى قرنين من الزمان كانت المعادلة الواضحة دون أى لبس أو غموض هى كالتالى:

وحدة وعمل مشترك فى الجانب العربى الإسلامى تدهور = وهزيمة فى الجانب الصليبى أو المعادى.

والعكس دائماً صحيح تماماً.

فهل سنفيق بعد أن نعى درس التاريخ، أم سنظل بسباتنا وغفلتنا قانعين؟...

مصطفى وهبه

المنصورة فى ٢٧/٨/١٩٩٧

الفصل الأول

نظرة شاملة على حال العالم قبيل الحروب الصليبية

(١) الغرب الأوربى قبيل الحروب الصليبية

حتى القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، وقبل بداية الحروب أو الحملات الصليبية على المشرق العربى، لم تكن أوربا كما نعرفها اليوم، دولاً مستقرة وشعوباً متميزة، بل كانت مجرد منطقه إقطاعيه متخلفة بالقياس إلى ما وصلت إليه - حينذاك - حضارة العالم البيزنطى «وريثة الإمبراطوية الرومانية وإمبراطورية اليونان القديمة»، وحضارة العالم العربى الإسلامى، من قوة وإزدهار.

وقد كان القرن الحادى عشر الميلادى بالنسبة للغرب الأوربى بداية فترة إمتدت ثلاثة قرون تمثل مرحلة الإبداع والنهوض فى تاريخ العصور الوسطى وخلال تلك الفترة كانت المؤسسات السياسية والإقتصادية والدينية والإجتماعية التى تشكلت منذ القرن السادس الميلادى قد رَسخت بحيث كانت الأساس الذى قامت عليه حضارة أوربا فى العصور الوسطى.

لقد شهد القرن الحادى عشر ميلاد قادة كبار وزعماء بارزين «من جهة نظر الغرب طبعاً» مثل: وليم الفاتح ملك انجلترا، والإمبراطور هنرى الثالث وإبنه هنرى الرابع، وروجر الأول النورمانى حاكم صقلية، وروبرت جويسكارد وإبنه بوهيموند أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى، والفونسو السادس ملك قشتالة. وقدكان أولئك جميعاً من العسكريين الذين كانوا يبحثون عن السلطة والمجد، يمثلون من وجهة نظر الشرقين «أو العرب المسلمين» الغدر والجموح والتعصب.

وعاش فى القرن الحادى عشر الميلادى معظم البابوات أو رجال الكنيسة الإصلاحيين«أو الذين لهم وجهة نظر سياسية وطموح سلطوى» ومن أبرزهم كان البابا جريجورى السابع«الشيطان المقدس» الذى رغب فى تحقيق السمو البابوى وسيطرة البابوية على مجريات الحكم والسياسة فى أوروبا آنذاك، وخليفته أوربان الثانى صاحب أول دعوة إلى الحملات الصيبية.

على جانب آخر كان هناك فى أوربا القرن الحادى عشر الفلاحون المتعبون الذين كانوا يزيلون الغابات ويزرعون أرضها بالمحاصيل التى تحتاجها أوروبا. وكان

هناك بحارة الموانى الأوروبية «مثل جنوا والبندقية وبيزا» الذين نجحوا فى طرد المسلمين من شواطىء أوروبا، وكانت تستولى عليهم روح الحيوية الدافقة والحماسة الجسورة التى كانت ملمحاً من ملامح أوروبا حينئذ.

فى ذلك الوقت كان الطابع الريفى أو المظهر الإقطاعى هو الغالب على أوروبا. وكان الأوروبيون يعيشون تحت رحمة الطبيعة إلى حد بعيد، إذ كانت الأرض المزروعة لا تزال ضئيلة المساحة بالقياس إلى مناطق البرارى والغابات والأراضى البور. وكانت كل هذه المساحات مرتعا للحيوانات المفترسة كالذئاب والدببه وغيرها. ولم يكن غريباً أن تدخل هذه الحيوانات إلى القرى أو تتجول فى الحقول المزروعة. وكان الفلاح الأوروبى يعيش فى كوخ صغير حياة أدنى من حياة الحيوان الذى يعمل فى الحقل. وكان طعامه فقيراً وبسيطا من إنتاج حقله، وملابسه كان يصنعها من جلود حيواناته وصوف أغنامه، وكان يومه شاقاً مضنيا يقضيه فى أعمال كثيرة متنوعة بحيث يأوى إلى فراشه الحقير فى الليل وقد هدّه التعب، ولم يكن الفلاح الأوروبى يأكل اللحم الطازج سوى مرة واحدة فى عيد ميلاد المسيح، ويحتفظ بما يتبقى منه مقدداً ومملحاً ليأكل منه طوال العام. وفى كل الأحوال لم يكن يأمن على نفسه من الجوع، فبسبب التكلفة الباهظة لوسائل النقل فى ذلك الزمان كان تدهور الزراعة ونقص محصولها الدائم سبباً من أسباب المجاعة.

وكانت السنوات العشر التى سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥م/٤٩٦هـ سنوات صعبة بالفعل على سكان أوروبا ولاسيما شمال فرنسا وغرب المانيا، إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعة، وكان الرعب يستولى على سكان تلك المناطق من ذلك الوباء الغامض الذى كان يضرب فجأة إحدى القرى أو المدن، فلا يتركها إلا وقد حصد أغلبية سكانها بمنجل الموت والعذاب البطىء. ومن الطبيعى أن يكون رد فعل الناس البسطاء المعتاد هو التعلق بأهداب الدين أو محاولة التكفير عن الذنوب والتجمع حول الزاهدين والنّساك بحثاً عن الخلاص. ولذا وجدت الدعوة التى دعاها البابا أوروبان الثانى لشن حرب صليبية ضد المسلمين تربة خصبة نمت وترعرعت فيها.

وبالنسبة لمعظم سكان غرب أروبا فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت القرية هى الوحدة الأساسية إقتصادياً وسياسياً واجتماعيا، وأيضاً على المستوى الدينى. وكان كل رجل يعمل فى الأرض الزراعية مقيداً بالتزامات إقطاعية تجاه أحد السادة الإقطاعيين. وفى ظل تلك الظروف المعيشية الصعبة كان جزء كبير من الفلاحين الذى كانوا يتمتعون بقدر من الحرية يتحولون تدريجياً وبمعدلات متصاعدة فى كافة أنحاء أوروبا إلى عبيد يخدمون السادة الإقطاعيين أو النبلاء. وكان كثيرون منهم يفضلون اللجوء إلى الكنائس والأديرة ليصبحوا عبيداً للرب، يعملون فى الأراضى الزراعية الكثيرة التى تمتلكها الكنائس والأديرة فى ذلك الوقت، على ألا يستمروا فى خدمة أسيادهم الأقطاعيين الذين يذوقون المر معهم، فقد كان هؤلاء السادة أو أصحاب الأقطاعيات يعتبرون أنفسهم ملاًكا لكل شيء، بل ملاّكاً للأرض ومن عليها، وأن من حقهم أن يعهدوا للفلاحين بإستخدامها فقط دون حيازتها، وكان على الفلاح أن يقدّم عدداً من الخنازير لسيدة الأقطاعى إذا أراد أن ترعى خنازيره فى الغابة الملاصقة للقرية، كما كان عليه أن يقدم له زبداً أو شئياً من هذا القبيل مقابل أن يترك أبقاره ترعى فى المراعى المحيطة بالحقول، وإذا صاد القروى بعض الأسماك من المجارى المائية أو البحيرات الواقعة داخل نطاق الأقطاعية يكون للسيد الأقطاعى حق الحصول على نصيب من هذا الصيد. وباختصار كان السيد الأقطاعى يعتمد فى غذائه على ما ينتجه الفلاحون. كما كان يعتمد على قوه سواعدهم فى بناء بيته أو قلعته التى تتوسط الأرض المزروعة، وفى المقابل كان الفلاحون - أو عبيد الأرض - لا يتمتعون بأية حقوق مدنية تجاهه. فلا يمكنهم الرحيل أو ترك الأرض، كما لا يمكنهم إستبدال سيدهم الأقطاعى إلا بإرتكاب جريمة أو المغامرة بالهروب أو بشراء حريتهم بالمال إذا قبل السيد بيعهم. أو إذا توفر لديهم المال - وهذا مستحيل بالطبع.

وهكذا كان الفلاحون فريسة للخوف الدائم، والإضطراب المستمر والإفتقار للأمن، وكانت أيامهم تمضى كئيبة فى انتظار مستقبل لا يأتى، وقد وقعوا تحت وطأة الطبيعة التى كانت تهددهم بنقص المحاصيل والمجاعات والأوبئة بين الحين والآخر، كما وقعوا تحت وطأة سادتهم الأقطاعيين الذين ساموهم سوء العذاب كما جعلوهم وقوداً لحروبهم الإقطاعية.

وفى ظل تلك الأوضاع الإجتماعية المحبطة والحياة القاسية والجو الفكرى المشبع بالخرافات والتدين العاطفى والتعصب وجدت دعوة البابا أوربان الثانى للقيام بحمله صليبية صدىً واسعاً وإستجابة كبيرة من أولئك الفلاحين والفقراء الذين وجدوا فى دعوته فرصة رائعة للخلاص من الفقر والإحباط والسادة الإقطاعيين أيضاً. كما أنها كانت تمثل لهم فرصة لخلاص أرواحهم المثقلة بالذنوب والاثام! لقد كان الجوع الذى عض بأنيابه معظم أنحاء أوروبا «وبالتحديد غربها» قبل نهاية القرن الحادى عشر بسنوات قليلة وراء خروج الأعداد الغفيرة من الفلاحين والمعدمين خلف قادة العصابات الذين شكلوا ما عرف باسم« الحملة الشعبية»أو «حملة الفلاحين» التى سبقت الحملة الصليبية الأولى.

لقد ربط هؤلاء الجياع والمحرومين أحوالهم المتردية باعتقادهم بقرب نهاية العالم التى ستنقلهم إلى أورشليم السماء، ولم يكن فى وسعهم أن يفرقوا بين أورشليم الحقيقية فى فلسطين، وأورشليم التى تخيلوها فى السماء فى أبهى الصور وأحلاها.

وكمقهورين عاشوا طويلاً فى إحباط وبؤس، فإنهم رأوا فى الدعوة الصليبية فرصة هائلة إختلط فيها الطمع الدنيوى بالرغبة فى الخلاص. وكما رأى الفلاحون الأرقاء والفقراء فى الحملات الصليبية فرصة لخلاصهم الدنيوى والأخروى، فاستجابوا بسرعة وبشكل كبير لدعوة البابا لهم كى يغزوا المشرق العربى، كذلك رأى فرسان أوروبا ونبلاؤها وأمراؤها فى تلك الحملات فرصة لتحقيق طموحاتهم لزيادة ثرواتهم وملكياتهم وإتساع منطقة نفوذهم وسيطرتهم سيما بعد أن ضاقت بهم أرض أوروبا ولم تعد إمكاناتها ومواردها تتناسب مع زيادة عددهم. وهذا ما كان يسبب نزاعات مستمرة بينهم ويدفعهم إلى خوض الحروب الكثيرة ضد بعضهم البعض.

وقد ذكر البابا «أوربان الثانى» لمستمعيه من الفرسان ما نصه: « . . هذه الأرض التى تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب، تحوطها سلاسل الجبال، وتضيق بإعدادكم الكبيرة، وهى لا تفيض بالثروات الكبيرة، إنما تكاد تعجز عن توفير الطعام لمن يقومون بزراعتها، وهذا هو السبب فى أنكم تشنون الحرب ضد

بعضكم البعض، وتقتلون بعضكم بعضاً».

لقد كانت الزيادة السكانية الكبيرة فى غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر الميلادى من أهم الأسباب التى حفّزت أبناء الغرب الأوروبى على البحث عن أرض جديدة وموارد جديدة خارج أوروبا، إذ كانت مجالات التوسع الأوروبية عاجزة عن توفير الغذاء الكافى لتلك الأعداد المتزايدة من السكان وعن تحقيق ما يطمح إليه فرسان ونبلاء أوروبا من زيادة ملكياتهم وثرواتهم. ولذلك جاءت الدعوة إلى التوسع فى الشرق العربى الإسلامى، وبمباركة الكنيسة بمثابة الحل السعيد لكل مشكلات الغرب الأوربى.

ومثلما كان الفقراء من فلاحى أوروبا «الانجليز والفرنسيين والألمان» وفرسانهم ونبلائهم يحلمون بكنوز الشرق والحياة الأفضل تحت سمائه.كانت مدن البحر الإيطالية: جنوا وبيزا والبندقية. تحلم بالسيطرة على تجارة البحر المتوسط، ومن ثم السيطرة على تجارة العالم، وذلك لم يكن ليتحقق إلا بعد السيطرة على الموانى الغربية المزدهرة شرق وجنوب البحر المتوسط، ومن هنا جاءت مساهمة تلك المدن فى الحملات الصليبية.

وقبل أن ننتقل من غرب أوروبا، مهد الحملات الصليبية. إلى المشرق العربى الإسلامى ونتعرف على حاله قبيل بدء تلك الحملات نرى من الضرورى التعرف على بقية ملامح خريطة ذلك الزمان، فنتعرف على دولتين كانتا سائدتين آنذاك ولهما شأن كبير وبينهما أيضاً صراع،وهما الإمبراطورية البيزنطية ودولة السلاجقة.

*****

(٢) الإمبراطورية البيزنطية

تأسست الإمبراطورية البيزنطية فى القسم الشرقى من الإمبراطورية الرومانية فى عهد الإمبراطور «أركاديوس» سنة ٣٩٥م وكانت تشمل الأراضى الواقعة فى هضبة الأناضول من حدود البسفور حتى نهر الفرات، وعاصمتها كانت القسطنطينية التى بناها «قسطنطين الكبير» على أنقاض مدينة يونانيه قديمة كانت تقع على البوسفور وذلك سنة ٣٢٤م. أنشئت تلك الإمبراطورية لمجابهة الفرس، ثم توطدت أركانها كامبراطورية قوية وذات نفوذ بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية وزوالها. لعبت تلك الإمبراطورية دوراً هاما فى الخلافات الدينية المسيحية وكان بين كنيستها وكنيسة روما صراع طويل كما كان بين تلك الكنيسة والكنيسة القبطيه فى مصر صراع أيضاً. عجزت تلك الإمبراطورية عن صد الفاتحين العرب الذين إنتزعوا منها سورية ومصر وشمالى أفريقيا وذلك بعد سنة ٦٣٢م، كما بلغ العرب حدود عاصمتها القسطنطينية «إستانبول الحالية» مرات عديدة. بلغت أوج قوتها وإزدهارها على عهد السلالة المقدونية فى الفترة من ٨٦٧ إلى ١٠٥٧م. وكان بينها وبين السلالة الحمدانية فى حلب صراع مستمر. وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر كان هناك صراع كبير بينهما وبين دولة السلاجقة التى كانت فى ذلك الوقت بمثابة الجناح العسكرى لدولة الخلفاء العباسيين.

*****

(٣) الدولة السلجوقية

السلاجقة فى الأصل قبائل وثنية كانت تستوطن سهول تركستان ونزحوا منها فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى إلى الأراضى الإسلامية المجاورة، وإعتنقوا الإسلام بعد أن أسلم جدهم الأكبر «سلجوق»، منشىء دولتهم التى سرعان ما قويت وإتسع سلطانها على حساب القبائل التركية المجاورة، ثم واصل «طغرلبك» حفيد «سلجوق» غزوه وزحفه نحو الجنوب والجنوب الغربى فاستولى على خراسان وفارس وبعدهما واصل زحفه نحو الموصل التى إستولى عليها نحو سنة ١٠٥٥م/٤٤٨هـ وبعد الموصل سار إلى بغداد، فاستقبله الخليفة العباسى «القائم بأمر الله» وفى بغداد قدم السلجوقى «طغرلبك» فروض الولاء والطاعة لزعيم الإسلام الروحى، خليفة المسلمين، فأعلنه الخليفة ملكا على جميع الأراضى والبلاد التى غزاها وسيطر عليها، وحين قام أحد أتباع الخلافة الفاطمية «التى كانت على المذاهب الشيعى» ويدعى «أبو الحارث البساسيرى» بثورة على الخليفة العباسى القائم بأمر الله «السنى» وقام بعزله إستغاث القائم «بطغر لبك» الذى هرع إلى بغداد بجيشه وقاتل «البساسيرى» حتى تمكن منه وقتله موطداً بذلك للقائم بأمر الله أركان خلافته العباسية بعد أن قضى على النفوذ الشيعى فى بغداد

وكما يحدث دائماً بدأ الفاتحون الذين جاءوا منقذين، يتصرفون بإعتبارهم غزاة، فهيمنوا على الخلافة العباسية ودولتهم الضعيفة. وصارت المنطقة بين خراسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تتبع الخليفة العباسى إسما ولكنها تدين بالخضوع الفعلى لسلطة سلاطين السلاجقة العظام: «طغرلبك» ثم «ألب أرسلان» ومن بعدهما «ملكشاه» وإستمر التوسع السلجوقى فى بلاد الشام على حساب الفاطميين وفى آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين التى كانت دولتهم تعانى من الضعف وتوشك على الإنهيار، وكثيراً ما كان أباطرتها يلجأون لطلب العون والمساعدة من بابا الفاتيكان «باعتبار إمبراطوريتهم مسيحية» لكى يحث فرسان أوروبا ومحاربيها للوقوف إلى جانبهم فى وجه زحف دولة السلاحقة الفتية.

كان هذا هو حال الدولة البيزنطية وغريمتها الدولة السلجوقية قبيل الحملات الصليبية، فماذا كان حال المشرق العربى الإسلامى آنذاك؟.

(٤) المشرق العربى الإسلامى
قبيل الحروب الصليبية

فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، كان المسلمون فى المنطقة العربية موزعين فى ولائهم السياسى بين الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطميةالشيعية فى القاهرة، وبالإضافة إلى النزاع والتخاصم المستمر بين الخلافتين، فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبكة بالقدر الذى جعل بلاد الشام وهى المجال الحيوى الذى تنازعت الخلافتان السيادة عليه ـ موزعة أو مقسمة إلى عدة إمارات صغيرة، كل إمارة مستقلة بذاتها يحكمها حاكم عربى أو حاكم من السلاجقة. وكانت مشاعر الحقد والشك المتبادله بين هده الكيانات السياسية الصغيرة سبباً فى العداء السياسى والعسكرى الذى كان حائلاً دون توحدها فى مواجهة الغزو الصليبى.

كانت الأحوال السياسية الداخلية المرتبكة قد جعلت الخلافة أو الدولة العباسية عملياً فى أيدى الأمراء السلاجقة، يتحكمون فيها ويوجهون دفة الحكم بها كيف شاؤوا.

وعلى الجانب الآخر كانت الخلافة الفاطمية قد دخلت مرحلة التدهور السياسى الداخلى بعد أن سيطر الوزراء فيها على الخلفاء وحوّلوهم إلى دُمى يحركونها حسب أهوائهم.

وعلى الرغم من المحاولات العسكرية المتكررة إلا أن الفاطميين فشلوا فى إسترداد نفوذهم الضائع فى الشام. وكانت الخلافات السياسية والمعارك العسكرية تشتعل بينهم وبين السلاجقة حُماة الخلافة العباسية، الذين كانوا يطمحون إلى ضم الشام ومصر تحت رايتهم. كما كانت هناك منازعات ومناوشات دائمة بين السلاجقة والسلاجقة، وبين السلاجقة وحكام الأمارات العربية فى الشام.

وعندما وصل الصليبيون إلى المنطقة كانت هناك إمارة فى حلب يحكمها «ضوان» الموالى للفاطميين، وكان العداء مستحكماً بينه وبين إمارة الشرق التى يحكمه «دقاق» الموالى للعباسيين، أما إمارة «شيراز» على نهر العاص قرب حماة

فكانت تحت حكم بنى منقذ، على حين كانت طرابلس تحت حكم بنى عمار الشيعة، أما بيت المقدس فقد ظل بأيدى السلاجقة حتى سنة ١٠٩٨م/ ٤٩١هـ حين إستولى عليها الفاطميون فى أثناء وجود الصليبيين فى أنطاكية، أما مدن الشمال فى آسيا الصغرى وأعالى بلاد الشام فكانت تنتقل من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين، ثم العكس، بطريقة تبادلية، وبإيقاع سريع، وكانت ضحية التخريب المستمر والتدهور.

وهكذا وعلى مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين، كانت المنطقة العربية الإسلامية مقسمة إلى كيانات سياسية صغيرة متصارعة، ولذلك عندما قدم الصليبيون لم يكن لدى حكام العرب والمسلمين سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه كل منهم للآخر. ولهذا مضت قوات الصليبيين كما تمضى السكين فى الزبد.

وفى طيات الموجة الصليبية الأولى غرقت هذه الإمارات الصغيرة الواحدة تلو الأخرى. وكان سقوط مدينة«نيقية» عاصمة دولة السلاجقة فى أيدى قوات الحصار المشتركة من الصليبين والبيزنطيين صدمة ونذير خطر لجميع القوى الإسلامية، ولكن الأنانية وضيق النظر جعل تلك الصدمة وذلك النذير بلا فائدة

الفصل الثانى

الحملات الصليبية

الحملة الصليبية الأولى

فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م/ ٤٩٦هـ، وفى حقل فسيح خارج مدينة «كليرمون»، وأمام جمع غفير من الناس الكنسيين والعلمانيين، خطب البابا «أوربان» الثانى خطابا حماسيا مطولا استعرض فيه ما وصفه باضطهاد المسلمين للحجاج المسيحيين فى بيت المقدس. ودعا فيه آلاف الكاثوليكيين الذين إحتشدوا من حوله إلى أن يشنوا حرباً مقدسة ويزحفوا على المشرق العربى الإسلامى ليحرروا بيت المقدس ويخلّصوه من أيدى المسلمين الكفرة ـ على حد تعبيره. ولم ينس فى خطابه أن يمتدح شجاعة الفرنج(*) وقدراتهم القتالية وأن يذكّرهم بأمجاد أسلافهم العظام وأن يحثهم على نبذ خلافاتهم ونزاعاتهم وعدم إراقة الدماء المسيحية فى حروبهم ضد بعضهم. كما لم ينس أن يشير إلى منح غفران جزئى لكل من سيشارك فى الحملة الصليبية التى سيشنونها لتحرير بيت المقدس سواء مات فى الطريق إلى الأرض المقدسة أو قتل فى المعارك. معتبراً كل من يشارك فى الحملة جندياً فى جيش الرب. وفى نهاية خطابه وزّع صلبانا مصنوعة من القماش على جموع المحتشدين حوله ليخيطونها على ملابسهم، وبذلك صار الصليب شارة لكل فارس مشارك فى الحملة الصليبية. والواقع أن خطبة البابا العاطفية الحماسية بما تخللها من تلويح بالمكاسب الدنيوية وترغيب فى المكاسب الدينية لقيت استجابة فورية وهائلة من الحاضرين، ولم تكن الاستجابة ناتجة من فصاحة البابا وقوة بيانه بقدر ما كانت تعبيراً عن أن البابا طرح أمام أبناء الغرب الكاثوليكى مشروعاً طال انتظارهم إياه. فقد كانت الدعوة إلى القيام بالحملة الصليبية تناسب العصر تماماً، إذ كان المجتمع الإقطاعى بغطرسته وكبريائه، وتعصبه ضد غير الكاثوليك، على أتم الاستعداد لتلبية مثل هذا النداء الذى يحل مشكلته فى الدنيا، ويضمن له المغامرة والكسب، مثلما يضمن له خلاص الروح والفردوس السماوى.

وزيادة فى ترغيب الأوروبيين وتشجعهم للمساهمة فى الحملة الصليبية

(١) أطلق العرب لفظ الفرنج على الفرنسيين أولا ثم أصبح يطلق على الأوروبيين.

اصدرت الكنيسة مراسيم غاية فى الأهمية لصالح الصليبيين فأثناء فترة غيابه تُعفى أملاك الصليبى من الضرائب، كما يمنح تسهيلات فى الديون التى يستدينها لا سيما وأن تكاليف الرحلة قد إضطرت كثيرين إلى الاستدانة من أقاربه ومعارفه، ومن الكنيسة أيضا.

وتحدد يوم الخامس عشر من شهر أغسطس من العام التالى ١٠٩٦م/٤٩٧هـ موعداً لرحيل الحملة، حين تكون المحاصل الزراعية قد جمعت من الحقول. أما مكان الالتقاء والتجمع فكان مدينة القسطنطينية الحصينة على ضفاف البوسفور.

هكذا، وعلى مدى ثمانية شهور بعد خطاب (كليرمون)، أخذ البابا «أوربان» الثانى يتنقل بين أنحاء الغرب والجنوب الفرنسى داعيا إلى حملته الصليبية فى محاولة لأن يجند لها أكبر عدد من الفرسان والأمراء البارزين بعد أن رأى أن عدد الحاضرين الذين استمعوا إلى خطابه لم يكن بالقدر الكافى.

وطلب البابا من أساقفته ومن المبشرين والدُعاة الفقراء أن يواصلوا ما بدأه ويدعون للحملة الصليبية أينما رحلوا وفى كل مكان يذهبون إليه. وكان من بين هؤلاء وأشهرهم: «بطرس الناسك» الذى هجر الدير بتكليف من البابا وأخذ يتجول فى شتاء سنة ١٠٩٥/ ١٠٩٦م بين أرجاء الشرق الفرنسى واللورين داعياً إلى حملة البابا. وفى كل مكان كان يذهب إليه هذا البطرس، كان يسحر ألباب الفقراء والمعدمين بفصاحته التى تناقض هيئته الزرية، إذ كان رث الثياب، حافى القدمين، بينه وبين حماره الذى يتنقل عليه شبه كبير، وحيثما حلّ كان الفقراء المأخوذون والمتأثرون بما يقول يتزاحمون ويتسابقون لنزع شعرات من ذيل حماره المسكين ومن جسده طلباً للبركة.

وسرعان ما التف حول بطرس الناسك جموع غفيرة من الفلاحين والفقراء والحثالة الذين لم يصبروا حتى يرجلوا فى الموعد الذى حدّده البابا أوربان الثانى للرحيل، فوجد بطرس نفسه وقد إمتطى حماره الذى يشبهه كثيراً فى مقدمة جيش يتكون من عدد قليل من الفرسان الذين يمتطون صهوات جيادهم وخلفهم آلاف من الراجلين ثم العربات الثقيلة التى تجرها الثيران حاملة المؤن والأموال والمعدات التى كان بطرس قد جمعها من أثرياء الغرب الأوروبى. وغادر هذا الجيش

العجيب الأراضى الألمانية فى ربيع سنة ١٠٩٦م/ ٤٩٧هـ.

وبالطبع لم يكن بطرس الناسك الذى كان قادراً على تحريك مشاعر الجماهير وإثارة عواطفهم، يصلح لقيادة مثل هذا الجيش الذى تألف من معدمين وفقراء، ومغامرين وأفّاقين ومجرمين وبنات هوى، كلهم يحلم بثروة الشرق ونعيمه، كما يحلم بملكوت السماء الموعود.

وما أن وصل ذلك الجيش - الذى كان بمثابة طليعة للحملات الصليبية التى تواترت فيما بعد - إلى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية حتى أخذ يعيث فيها فساداً ونهباً وقتلا وحرقاً، مما اضطر الإمبراطور البيزنطى لأن ينقلهم بسرعة (أو يطردهم) عبر المضايق إلى آسيا الصغرى - بعد التفاهم مع قائدهم بطرس الناسك بالطبع - وهناك فى اسيا الصغرى وقعوا فى شباك السلاجقه التى كانوا قد نصبوها لهم، وأجهزوا عليهم. وبذلك انتهت تلك الحملة الصليبية الشعبية فوق تراب الشرق العربى الإسلامى الذى داعب خيالهم وحرّك فيهم مشاعر الطمع على مدى ألفين ومائتى ميل هى طول المسافة من الغرب الأوروبى إلى الشرق.

فى تلك الأثناء كانت جيوش الفرسان فى غرب أوروبا تتأهب للرحيل، وكانت قد تكونت عدة جيوش على أساس من التقسيمات اللغوية والجنسية من جهة، وعلى أساس من الروابط الاقطاعية من جهة أخرى.

فكان هناك جيش يقوده «جودفرى البويلونى» وبصحبته أخوه «بلدوين» وتألف جيشهما من فرسان شمال فرنسا واللورين، وجيش يقوده «روبرت» الثانى ومعه «ستيفن هنرى» زوج أخته، وتألف جيشهما من فرسان غرب فرنسا ونورماندى، وجيش يقوده «ريمون» الرابع وبصحبته «أديمار» المندوب البابوى، وتألف هذا الجيش من فرسان جنوب فرنسا، وجيش يقوده «هيو»، شقيق فيليب الأول ملك فرنسا، وجيش يقوده «بوهيموند» ويتألف من فرسان النورمان وقد بلغ عدد جنود تلك الجيوش المشاركة فى الحملة الصليبية الأولى، أكثر من ٧٠٠ ألف مقاتل. وصلت تلك الجيوش تباعاً إلى الأراضى البيزنطية وتجمعت فى القسطنطينية حيث استقبلها الإمبراطور البيزنطى الذى لم يسمح إلا للقادة وعدد قليل من مرافقيهم بالدخول إلى العاصمة الامبراطورية وفرض على القوات الصليبية أن يضربوا خيامهم

ويعسكروا خارج المدينة، وذلك لسابق تجربته ومعاناته من الحملة الصليبية الشعبية التى قادها «بطرس الناسك».

وفى القسطنطينية كادت الحملة الصليبية الأولى أن تفشل وينقلب الحال إلى قتال بين البيزنطيين والصليبيين بعد أن تأزمت الأمور بين قادة الحملة والامبراطور البيزنطى الذى كان يصر على أن يُقسم له قادة الحملة يمين الولاء والتبعية قبل أن يسمح لهم بعبور أراضيه، بينما قادة الحملة الذين يملأهم الغرور والغطرسة كانوا يرفضون ذلك معتبرين أنفسهم فى مهمة مقدسة تستوجب خضوع الجميع لهم، كما أن من أسباب تلك الأزمة العداء القديم بين الامبراطورية البيزنطية وبين الغرب الأوروبى والخلاف المتوارث بين الكنيسة البيزنطية وبابا الكاثوليك على زعامة العالم المسيحى.

وفى النهاية تمكن الامبراطور البيزنطى بدهائه أن يجعل قادة الحملة يقسمون له بالولاء. ومن لم يقسم منهم (وخصوصاً ريمون كونت تولوز الذى كان يقترب عمره من الستين ويقود أكبر جيوش الحملة). أقسم بأن يحمى شرف الامبراطور وحياته!!

بعد ذلك ـ وبعد فاصل استعراض القوة بين قادة الحملة وإمبراطور بيزنطة ـ بدأت عجلة الحرب تدور وعبرت القوات الصليبية مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى (تركيا الحالية). وهناك على بعد أميال قليلة من القسطنطينية وجد الصليبيون أنفسهم فى «أرض العدو» لأول مرة. وهناك انضم إليهم بطرس الناسك وشراذم الناجين من حملته الشعبية. وكان الامبراطور البيزنطى قد اعتذر عن قبول العرض الصليبى بقيادة الحملة، واكتفى بأن زوّد الجيش الصليبى بعدد من الأدلاء والمرشدين وعدد من العساكر والقادة، كما ظل يرسل لهم المؤن والامدادات عن طريق البر والبحر.

وفى السادس من مايو سنة ١٠٩٧م/ ٤٩٨هـ وصلت جيوش الحملة أمام مدينة «نيقية» عاصمة الدولة السجلوقية التى كان يحكمها «قلج أرسلان»، وكانت المدينة تتحكم فى الطريق الأساسى عبر هضبة الأناضول، فتم فرض حصار مشترك من القوات الصليبية والقوات البيزنطية حولها إلى أن استسلمت، فاقتحمها

الصليبيون وأخذوا فى سلبها ونهبها وتدميرها وذبح أهلها.

وبُهت المسلمون بوصول هذه القوات الصليبية إلى «نيقية» - وكانوا فى الواقع قادرين على إبادتها، إلا أن ميراث الشك والعداوة بين حكام المنطقة والذى غرسته وأنبتته طوال قرن كامل حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة، جعل المسلمين عاجزين عن مواجهة الصليبيين ولا بد أن السلاجقة ظنوا أن الحملة الصليبية لم تكن أكثر من حملة عسكرية بيزنطية من النمط الذى تعوّدوا عليه.

أما الفاطميون (الشيعة) فإنهم لم يفكروا أبدا فى مساعدة السلاحقة (السنيين) ضدد الصليبيين، وإنما بالعكس- حاولوا الاستفادة، غير مدركين للخطر الكبير المحدق بهم وبالمنطقة العربية الاسلامية كلها، فسارعوا بالزحف على القدس، التى كانت حتى ذلك الحين بأيدى السلاجقه، واستولوا عليها، مستغلّين ضعف قبضة السلاجقة عليها نتيجة إنشغالهم بمواجهة الصليبيين فى الشمال. وبعد سقوط «نيقية» واصل الصليبيون زحفهم، فاستولوا على إمارة «الرها» التى كانت تشغل مساحة من الأرض على جانبى نهر الفرات شمال العراق، وسكانها غلبيتهم كانت من الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام، وكانت أهميتها تتمثل فى دورها كدولة حاجزة فى الشمال الشرقى من دولة السلاجقة وبعد سقوط إمارة الرها، أسس «بلدوين» فيها أول مملكة صليبية فى الشرق الإسلامى.

ثم واصل الصليبيون زحفهم نحو مدينة «انطاكية» ذات الموقع البديع بالقرب من البحر على منحدر يؤدى إلى وادى نهر العاصى الجميل، والتى كانت فى تاريخها القديم درة فى تاج الامبراطورية الرومانية القديمة. بدأ الصليبيون فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٩٧م/ ٤٩٨هـ يفرضون الحصار على انطاكية، واستمر حصارهم لها حوالى تسعة أشهر، حاول خلالها أمراء دمشق وحمص السلاجقة فك ذلك الحصار عدة مرات ولكنهم لم يفلحوا. وخلال ذلك الحصار ظن الفاطميون أن بوسعهم الاستفادة من الوضع، فأرسل الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الفاطمى المستعلى - وكان صاحب السلطة الفعلية فى الدولة آنذاك - من يفاوض الصليبين لاقتسام بلاد الشام نكاية فى السلاجقة والعباسيين، ولكن المفاوضات فشلت. وتمكن الصليبيون بعد حصار التسعة أشهر من إستمالة

أحد الأرمن المشتركين فى الدفاع عن المدينة، ففتح لهم باب البرج الذى كان قائما على حراسته فتدفقوا منه إلى داخل المدينة، وتمكنوا من السيطرة عليها.

وهكذا سقطت المدينة الحصينة، وأسس فيها القائد الصليبى «بوهيمند» ثانى إمارة صليبية على أرض المشرق. وقد كان ذلك فى يونية سنة ١٠٩٨م/ ٤٩٩هـ، واستمر وجودهم فيها حتى سنة ١٢٦٨م/ ٦٦٦هـ حين تحررت على يد الظاهر بيبرس.

بعد انطاكية واصل الصليبيون زحفهم نحو القدس التى وصلوا إليها فى السابع من يونية سنة ١٠٩٩م، وفرضوا عليها حصاراً دام خمسة أسابيع، حتى عجز الفاطميون بداخلها عن الصمود، فاقتحموها يوم الجمعة ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م/ ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢هـ وأخذوا فى سلبها ونهبها وقتل كل من كان حياً بها، حتى لقد بلغ عدد من قتلوه بها من المسلمين نحو سبعين ألفا.

وعن الفظائع التى ارتكبها الصليبيون ببيت المقدس وما حوله، يقول «ابن خلدون» فى كتابه «العبر»: «استباح الفرنجة بيت المقدس وأقاموا فى المدينة اسبوعا ينهبون ويدمرون، وأحصى القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعبّاد والزهّاد المجاورين فكانوا سبعين ألفا أو يزيدون....».

ويقول «ويلز» فى كتابه «موجز تاريخ الشرق الأوسط»: «حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة، وكان دم المقهورين يجرى فى الشوارع، حتى لقد كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم، وهم راكبون، وعندما أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يبكون من فرط الفرح، وخاضوا فى الدماء التى كانت تسيل كالخمر فى معصرة العنب، واتجهوا إلى الناووس ورفعوا أيديهم المضرجة بالدماء يصلّون لله شكراً!».

ويقول المؤرخ المسيحى «نقولا زيادة» فى كتابه «الصليبيون فى الشرق»: «والحملة الصليبية الأولى، والفظائع التى ارتكبتها فى طريقها وفى احتلال القدس ليست مما يشرف، وقد تظهر لنا رغبات الصليبيين من خلال تصرفهم مع مسيحى فلسطين أنفسهم، فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت،

فتبعثر المسيحيون فى جهات فلسطين وشرق الأردن، وسار البطريرك إلى القاهرة ليعيش فى حماية الفاطميين».

هذا ولم يُنج من سكان القدس سوى قائد حاميتها الفاطمى «افتخار الدولة» وعدد من رجاله.

وعندما خمدت شهوة القتل لدى الصليبيين، كانت أولى المهمات التى واجهتهم هى مواراة الجثث التى فاحت منها الروائح النتنة فى كل أنحاء المدينة أو التخلص منها بطريقة ما. ثم اجتمع زعماؤهم فى كنيسة القيامة لكى يقرروا ما ينبغى عمله بعد أن استولوا على المدينة. فقد كان واضحاً أنهم حين تركوا أوروبا لم تكن لديهم فكرة واضحة عما سيفعلونه بالقدس بعد الاستيلاء عليها، كما أن البابا «أوربان» الثانى - الذى مات قبل أن يعرف بخبر الاستيلاء على القدس - لم يحدد لهم نظام الحكم فى المدينة المقدسة. وبعد مشاورات ومداولات بين قادة الحملة الصليبية انتهوا إلى اختيار «جودفرى البويلونى» ليكون حاكما لبيت المقدس تحت لقب فضفاض هو «حامى الضريح المقدس»، ولم يلبث جودفرى أن مات فى الثامن من شهر يوليو سنة ١١٠٠م/ فاستدعى بلدوين أخوه من إمارته فى الرها ليتولى الحكم بدلاً منه.

وهكذا قامت مملكة بيت المقدس الصليبية التى كانت فى ذلك الحين تتكون من مدينة بيت المقدس نفسها إلى جانب يافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل.

فى ١٢ أغسطس ١٠٩٩م/ ١٤ رمضان ٤٩٢هـ كان «الأفضل شاهنشاه» أمير الجيوش المصرية قد جاء بجيشه لمهاجمة الصليبيين، وحين كان ينتظر قدوم الأسطول المصرى بالقرب من عسقلان، ليعاونه فى هجومه العسكرى على الصليبيين، فاجأه الصليبيون وأخذوه على غرة وهزموه هزيمة قاسية راح ضحيتها عشرة آلاف رجل، وفر «الأفضل» غربا حتى عاد إلى القاهرة. وكانت هذ المعركة بمثابة تأمين وتثبيت للوجود الصليبى فى بيت المقدس إلى حين.

وفى العام التالى خرج «شرف المعانى» ابن الوزير الفاطمى «الأفضل» بجيش قوامه عشرون ألفا من المقاتلين إلى عسقلان ومنها زحف إلى الرملة، وهناك التقى بالصليبيين وأوقع بهم هزيمة قاسية وأسر منهم مئات أرسلهم إلى القاهرة مكبلين

بالحديد ليسيروا فى شوارعها مكللين بالخزى والعار قبل أن يوضعوا فى السجون. وعلى الرغم من هذا الانتصار إلا أنه ـ فى الحقيقة ـ لم يكن كافيا لاسترداد القدس وطرد الأعداء منه.

وبعد الاستيلاء على بيت المقدس، رحل بعض كبار قادة الصليبيين إلى أوروبا، بينما ظل العدد الأكبر منهم فى المنطقة العربية حيث كان عليهم أن يقوموا بمهمات الادارة الاستعمارية الإستيطانية، ولأنهم كانوا أقل كثيرا فى عددهم من المسلمين والعرب أصحاب البلاد، فقد حاولوا قدر طاقتهم أن يشجعوا الهجرة من أوروبا إلى فلسطين لتدعيم وجودهم فيها.

ومن ناحية أخرى كانت أخبار النجاح الذى أحرزته الحملة الأولى للصليبيين قد شجعت عناصر أوروبية جديدة على القدوم إلى الشرق العربى رغبة فى الحصول على نصيب من الغنائم التى شاعت أخبارها فى الغرب الأوروبى مع العائدين من فلسطين.

فى هذا الوقت كان البابا «باسكال» الثانى خليفة البابا «أوربان» الثانى ـ الداعى الأول للحملات الصليبية ـ يقوم بعملية دعائية نشطة لتجميع حملة جديدة تساعد الصليبيين الذى نجحوا فى إقامة مملكة وإمارتين فى بلاد المسلمين.

وفى غرب أوروبا وتحديداً سنة ١١٠١م/ ٤٩٤هـ، تجمعت حملة جديدة لمساندة صليبيى الشرق. ومن «لمبارديا» قاد «آنسلم» أسقف ميلانو جموعاً من المسيحيين تشبه جيش «بطرس» الناسك وغادروا ميلانو فى ١٢ سبتمبر من نفس العام.

وسلكوا نفس الطريق الذى سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى، وعندما وصلوا إلى القسطنطينية بدأوا فى إثارة المتاعب الصليبية المعتادة، فأسرع الامبراطور البيزنطى بنقلهم بسرعة إلى آسيا الصغرى، وهناك لحقت بهم الجيوش الألمانية ثم الجيوش الفرنسية.

وفى تلك الأثناء كان «بوهيموند» القائد الصليبى الشهير أسيراً لدى أمير سيواس «الغازى بن الدانشمند»، وسيطرت على صليبيى الحملة الجديدة فكرة الزحف لتحريره، ولكن السلاحقة، الذين تلقوا هزيمة مريرة من الحملة الصليبية

الأولى - نتيجة فرقتهم وانقسامهم - كانوا يعون الدرس جيداً هذه المرة، فاتّحدت جهودهم فى مواجهة جيوش تلك الحملة الصليبية الجديدة وأطبقت جيوش «قلج أرسلان» سلطان السلاجقة، و «رضوان» أمير حلب و «إلغازى» أمير سيواس على الصليبيين الذين تبدد جمعهم بين قتيل وجريح وأسير. وهرب الزعماء فى الوقت المناسب ليحاولوا أن يشيعوا أن هزيمتهم كانت بسبب خيانة الامبراطور البيزنطى، وانسحب الناجون من فلول هذه الحملة إلى القدس.

من ناحية أخرى بدأ الصليبيون يمدون نفوذهم فى الأراضى والموانى التى كانت تفصل أو تصل بين النقاط المتناثرة التى استولوا عليها. وفى بطء عنيد بدأوا يفرضون سلطانهم على منطقة تلو الأخرى، فى حين بدت المقاومة العربية الإسلامية عاجزة تماماً عن التصدى لهم. فاستولوا سنة ١١٠١م/ ٤٩٤هـ على سروج وحيفا وأرسوف ثم قيسارية. وكانت جنوا (فى إيطاليا) بأساطيلها خير عون لهم دائماً.

وحاول الفاطميون فى السنة التالية أن يشنوا هجوماً مضاداً على الصليبيين ولكنه باء بالفشل على الرغم من فداحة خسائر الصليبيين.

ثم فى سنة ١١٠٣م/ ٤٩٦هـ - ومن جهة أخرى - استولى البيزنطيون على اللاذقية، ثم استولى الصليبيون على عكا سنة ١١٠٤م/ ٤٩٧هـ.، وبعدها استولوا على طرابلس سنة ١١٠٩م/ ٥٠٢هـ بعد حصار طويل دام سبع سنوات وأقاموا فيها إمارتهم الصليبية الثالثة.

وهكذا تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على ساحل البحر المتوسط كله باستثناء صور وعسقلان.

وكان معنى هذا اختلال كبير فى التوازن العسكرى لصالح الصليبيين بالشكل الذى أقلق إمارة دمشق - التى لم تخضع للصليبيين حتى ذلك الحين.

وإزاء الفشل على محور دمشق - القاهرة، أو فشل تنسيق الجهود الإسلامية بين الشام ومصر، بدأ أمير دمشق «طغتكين» يحاول عقد تحالف مع حاكم الموصل الجديد «مودود» الذى كان بدوره يحاول تنظيم تحالف إسلامى كبير لطرد الفرنج

من بلاد الشام ومن المنطقة العربية.

وفى نفس الوقت وعلى التوازى مع هذا المسعى من حاكم دمشق وحاكم الموصل، كان العالم الإسلامى قد بدأ يشهد ظاهرة إيجابية، إذ تشكل رأى عام ضاغط يقوده أصحاب الرأى والمفكرون وشيوخ المساجد، بدأ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام وأنانيتهم وضيق أفقهم الذى ضيع البلاد وأذل العباد (على حد تعبير ابن الأثير).

وأثارت أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج مشاعر الإستياء والغضب فى كل مكان ذهب إليه اللاجئون، كما أدرك المسلمون أن الصليبيين قد جاءوا إلى بلادهم بقصد البقاء، وكانت تلك صدمة نفسية مؤلمة.

وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسرى بين الناس فى العالم العربى الإسلامى بسرعة كبيرة، بحيث عمّت سائر المناطق، وفى رحم هذه الحركة القوية تبلورت اتجاهات المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين.

وظهر «عماد الدين زنكى» الذى دانت له الموصل سنة١١٢٧م/ ٥٢١هـ، ليقود حركة الجهاد والمقاومة التى بدأها من قبله «مودود» على محور الموصل/ دمشق.

وما لبث «عماد الدين زنكى» أن صار أقوى حاكم مسلم فى زمانه لأنه طوّع قوته وموارده العسكرية فى خدمة المطلب العربى الإسلامى العام، أى الجهاد ضد الغزاه حملة الصليب. وبرزت امارة الموصل باعتبارها سابقة ومقدمة للدول العسكرية التى يقودها ملك/ مقاتل، لكى تتولى مهمة قتال الصليبيين، حتى نجحت فى طردهم نهائياً من المنطقة العربية بعد فشل كل من الخلافتين العباسية والفاطمية فى التصدى لهم، وهذه الدول التى نعنيها هى الدولة الأيوبية ودولة المماليك.

وشيئا فشيئا تمكن «عمار الدين زنكى» من التغلب على النعرات الانعزالية فى كل من بلاد الشام والعراق. فتمكن سنة ١١٣٧م/ ٥٢٢هـ. من ضم مدينة حلب وتوحيدها مع إمارته فى الموصل، بعد أن تقرّب من أميرها وتزوج إبنته، وكان هذا أمراً فى غاية الخطورة على الصليبيين فى شمال بلاد الشام لأنه كان يقطع الطريق بين الرها وغيرها من المستوطنات الصليبية، وفى العام التالى استولى على حماه، وتوالت فتوحاته وتوسعاته فاستولى على حمص سنة ١١٤٣م/ ٥٣٢هـ وبذلك أصبح يسيطر على مساحة كبيرة من الأرض التى تحيط بإمارة الرها التى يحتلها

الصليبيون من ناحية الشرق ومن ناحية الجنوب الغربى.

وصار الطريق ممهداً أمامه لتوجيه ضربة قوية للصليبيين، ولكن الذى أجّل هذه الضربة ووقف حائلا دون اتمام جهوده لتوحيد الجبهه الإسلامية فى مواجهة العدو الصليبى هو حاكم دمشق «معين الدين» الذى رفض دعوات «نور الدين زنكى» المتكررة له لكى ينضم لحلفه الإسلامى وفضّل الاحتفاظ بملكه الخاص فى دمشق ومهادنة الصليبيين، فاستغل نور الدين زنكى تعاطف أهالى دمشق معه وحماسهم للثأر من الصليبيين، وقام بالزحف على دمشق وحصارها حتى يجبر حاكمها معين الدين على تغيير موقفه، لكن الأخير سارع بطلب الحماية من حاكم بيت المقدس الصليبى، الذى لم يفوّت الفرصة وأرسل له جيشاً صليبياً ليشترك معه فى محاربة نور الدين. فآثر نور الدين الأنسحاب حتى لا تضيع الدماء الإسلامية فى معركة جانبية تبعده عن هدفه، وهو دحر الصليبيين وتحرير بيت المقدس من قبضتهم النجسة.

وبعد أن انسحب من أمام أسوار دمشق، والتقط أنفاسه زحف بجيشه نحو الرها. وبعد حصارها لمدة ثمانية وعشرين يوما استطاع أن يدخلها ويستولى عليها بعد أن قضى على الصليبيين بها.

وكانت الرها هى أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربى الإسلامى. ويشاء القدر أن تكون هى أول إمارة تتحرر، وكان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة للصليبيين. ترددت أصداؤها فى كل مكان، إذ كانت المدينة ترتبط بتراث المسيحية الباكر، كما أن سقوطها بعد ما يقرب من خمسين عاما من استيلاء الصليبيين عليها كان نذير شئوم بالنسبة لهم.

وكأن القدر كان على موعد مع «عماد الدين زنكى»، فبعد عامين من تحريره إمارة الرها، وبالتحديد سنة ١١٤٦م/ ٥٤١هـ قتل غيلةً على يد أحد غلمانه. ويعتبر اغتياله لغزاً كبيراً محيراً، سيما وأنه ظل يحكم الموصل نحو عشرين عاما متصلة دون أن يتعرض لمحاولة اغتيال واحدة.

هذا وقد خلف «نور الدين محمود» أباه «عماد الدين زنكى» فى إمارة الموصل، ولم يستكن عن مواصلة هدف توحيد الإمارات الإسلامية فى المشرق للقضاء على الكيان الصليبى وتحرير بيت المقدس.

الحملة الصليبية الثانية

أحدث سقوط إمارة الرها وتحريرها على يد «عماد الدين زنكى» زلزالاً كبيراً فى أوروبا. وفى الشرق ـ حيث مستوطنات الصليبيين ـ كان الإحساس بالهزيمة مريراً، فذهب وفد من فرنج الشرق إلى بلاد البابا «ايجنيوس» الثالث، بعد أن اعتلى العرش البابوى بوقت قصير، كما ذهب وفد آخر من الأرمن يستنهض هِمَمْ البابويه وملوك الغرب لمحاولة استرداد الرها التى ضاعت منهم.

ونتيجة لتلك المساعى تجمع جيش فرنسى كبير قوامه سبعون ألفا على رأسه لويس السابع ملك فرنسا، وتجمع جيش ألمانى قوامه سبعون ألفا أيضاً على رأسه امبراطور المانيا «كونراد» الثالث.

واتخذ الجيشان طريقين مختلفين للوصول إلى المشرق العربى، فالجيش الألمانى اتخذ طريق البحر، ورست سفنه على شواطىء آسيا الصغرى، ثم عبر البوسفور، وعلى أرض السلاجقة هاجمه المسلمون وأجبروا قسماً كبيراً منه على العودة، واضطر الامبراطور الألمانى كونراد الثالث إلى التخفى واستطاع أن يفلت من حصار السلاجقة ويصل إلى بيت المقدس.

أما الجيش الفرنسى فسار بطريق البر حتى وصل إلى القسطنطينية وهناك عرف أن حشوداً إسلامية كبيرة تنتظره فى إمارة الرها، فالتف حولها، متجنبا الصدام مع تلك الحشود، وفضّل التقدم نحو بيت المقدس.

وفى بيت المقدس اتفق كل من الملك الفرنسى والإمبراطور الألمانى مع «بلدوين» الثالث ملك بيت المقدس على الزحف نحو دمشق واحتلالها ـ على الرغم من أنه كان هناك حلفا معقوداً فى ذلك الوقت بين أمير دمشق «معين الدين» وبين الصليبيين على ألا يهاجموا دمشق نظير جزية سنوية يدفعها لهم.

وهكذا حاصر الصليبيون مدينة دمشق، التى كانت بالغة القوة والتحصين، وفى نفس الوقت سارعت قوات إسلامية كثيرة لإنقاذ دمشق وفك الحصار المضروب حولها، مما اضطر الجيوش الصليبية إلى التقهقر والإنسحاب ليتفادوا معركة دموية كبرى لم تكن فى حسبانهم.

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية التى كان هدفها استرداد إمارة الرها، وانسحبت جيوش الصليبيين إلى أوروبا وهى تشعر بمرارة الخزى والهزيمة.

هذا وقد استغرقت أحداث الحملة الصليبية الثانية الفترة من أواخر سنة ١١٤٧م/ ٥٣٢هـ إلى أواخر سنة ١١٤٩م/ ٥٣٤هـ.

الأوضاع بعد الحملة الصليبية الثانية ومقدمات معركة حطين وتحرير بيت المقدس

كان من نتائج فشل الحملة الصليبية الثانية، أن خضعت مدينة دمشق لسيطرة «نور الدين محمود» وانضمامها إلى جبهة الجهاد ضد الصليبيين، فمثلما كان «معين الدين» حاكم دمشق يمثل عقبةً كؤوداً فى وجه محاولات «عماد الدين زنكى» المستمرة لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية، كان «مجير الدين» الذى خلف أباه معين الدين فى حكم دمشق يمثل نفس العقبة، إلى انكسر الصليبيون وباءت حملتهم الثانية بالفشل.

وبالتحديد سنة ١١٥٤م/ ٥٤٩هـ نجح «نور الدين محمود» فى دخول دمشق بناء على رغبة أهلها الذين سئموا ظلم حاكمهم مجير الدين وسياسته المهادنة للصليبيين.

وهكذا توحدت الجبهة الإسلامية تحت قيادة نور الدين محمود، وبسبب تماسك هذه الجبهة والهجمات المستمرة التى كانت تشنها على مستوطنات الصليبيين، اتجهت الانظار نحو مصر، التى كانت آنذاك تعانى ضعفا سياسياً شديداً، إذ كانت الخلافة الفاطمية فى الطور الأخير من عمرها، عارية إلا من بعض ظلال قوتها السابقة ومجدها الغابر، بعد أن أنهكتها الكوارث الطبيعية والمنازعات الداخلية.

ومنذ وزارة «بدر الدين الجمالى» صار الوزراء فى الدولة الفاطمية أصحاب السلطة الحقيقية وأصبح الخلفاء ألعوبة بأيديهم، كما توالى جلوسهم على كرسى الحكم فى إيقاع سريع يدل على مدى الاضطراب والتدهور الذى وصل إليه حال الدولة.

لقد كانت الدولة الفاطمية ـ آنذاك ـ أشبه بالرجل المريض الذى ينتظر الجميع نهايته حتى ينال كل منهم من إرثه شيئا، ولما كانت مصر بمواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة من يستولى عليها أو يضمها إلى جانبة فى الصراع، لذلك آثر كل من نور الدين محمود ـ رأس القوى العربية والإسلامية ـ

والصليبيين، عدم انتظار نهاية الدولة الفاطمية ويبادر بوضع ملامح تلك النهاية بيده. لذلك بدأ «بلدوين» الثالث سنة ١١٥٠م/ ٥٤٥هـ فى إصلاح تحصينات غزة استعداداً للهجوم على مصر، وتمكن سنة ١١٥٣/ ٥٤٨هـ من الاستيلاء على عسقلان.

وبهذا دان الساحل الفلسطينى كله للصليبيين لأول مرة بعد نصف قرن من حملتهم الأولى على المشرق.

وبالاستيلاء على عسقلان تم موازنة الهزائم التى تلقاها الصليبيون فى الجبهة الشمالية بالانتصار الذى حققوه ضد الدولة الفاطمية المتهاوية فى الجنوب.

وحين مات «بلدوين الثالث» فى ١٠فبراير سنة ١١٦٣م/ ٥٥٨هـ كان واضحاً أن سياسته الخارجية التى قامت على أساس غزو مصر لن تتوقف، فسياسة خليفته «أماليك» الأول أو (عمورى) حاكم بيت المقدس كانت فى حقيقة أمرها عباره عن سلسلة متصلة من المحاولات الدؤوبة لفتح مصر، وكانت الظروف تحتم تلك السياسة، إذ أن اتحاد حلب ودمشق تحت راية نور الدين محمود جعل غزو مصر هو الحل الوحيد لنجاة الصليبيين، إذ أدرك «عمورى» أن سقوط مصر الفاطمية فى يد نور الدين محمود سيجعل الدويلات الصليبية بين شقى رحى.

وهكذا كان كل من: نور الدين محمود وعمورى، على أهبة الاستعداد لبدء السباق الذى جائزة الفوز به: مصر، بمواردها الاقتصادية والبشرية الهائلة.

وأخيرا سنحت الفرصة لتدخل الجانبين، عندما نشب صراع على منصب الوزارة فى مصر بين كل من شاور حاكم الصعيد، وضرغام حاجب الخليفة وذلك إبان حكم الخليفة العاضد لدين الله - آخر خلفاء الفاطميين والذين زالت فى عهده دولتهم - فوجد الملك الصليبى (عمورى) فى الفوضى الضاربة فى مصر آنذاك فرصة جيدة للهجوم عليها بحجة عدم دفع الجزية التى كانت مقرره على مصر للصليبيين فى عهد سلفه بلدوين الثالث.

وفى سنة ١١٦٣م/ ٥٥٨هـ، كانت قوات الملك الصليبى تعبر برزخ السويس، ثم تحاصر مدينة بلبيس. ولكن ضرغام (الذى كان منفرداً بسلطة الحكم آنذاك بعد فرار غريمه شاور ولجوئه إلى نور الدين محمود بالشام) تصدى لهم وقطع جسور

النيل، بحيث شكلت مياه الفيضان وأوحال الدلتا عائقا رهيبا لهم حال دون تقدمهم وجعلهم يتقهقرون عائدين إلى فلسطين.

فى نفس تلك الأثناء كان «شاور» قد اتفق مع نور الدين محمود على أن يشن الأخير حملة عسكرية يستعيد بها كرسى الوزارة الذى ضاع منه فى القاهرة، والتزم بأن يتحمل نفقات الحملة وأن يتنازل له عن بعض مناطق الحدود ويعترف له بالسلطة على مصر بجانب سلطته على الشام، ويرسل له سنوياً ثلث الموارد المصرية.

ووجد نور الدين محمود فى عرض «شاور» الفرصة التى كان يتحيّنها لضم مصر وتوحيد القوى العربية والإسلامية بشكل كامل ونهائى، فأرسل مع شاور حملة عسكرية بقيادة أحد قادته الافذاذ وهو «أسد الدين شيركوه» وبرفقته ابن أخيه الشاب ذو السبعة والعشرين عاما «صلاح الدين الأيوبى» الذى جعلته الأقدار خلفاً لنور الدين محمود فى قيادة الجهاد ضد الصليبيين والانتصار عليهم انتصاراً كبيراً فى «حطين»- كما سيأتى الكلام بتفصيل عنه.

وبالطبع لم تكن أنباء الاتفاق الذى تم بين الوزير الفاطمى وبين نور الدين محمود لتخفى عن «ضرغام» الذى حركته شهوة السلطة والأنانية السياسية، فسارع إلى طلب النجدة من الصليبيين، فتحركت على الفور حمله صليبية بقيادة «عمورى» إلى مصر. وكانت تلك إحدى خمس محاولات حاول فيها هذا الملك الصليبى غزو مصر - خلال ست سنوات متتالية - ولم يفلح فى واحدة منها.

ولقد أعقب محاولات «عمورى» الفاشلة تلك ضد مصر نتيجتين هامتين:

أولا: تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس الصليبية.

ثانيا: تغير الخريطة السياسية لصالح القوى العربية والإسلامية بعدما قتل كل من شاور وضرغام (الوزيرين الفاطميين) فى خضم الصراع، وبعدما تولى أسد الدين شيركوه كرسى وزارة الخليفة العاضد لدين الله، ثم موت أسد الدين وتولى إبن أخيه صلاح الدين الوزارة، الذى أثبتت الأحداث بعد ذلك أنه بطل تلك الحقبة الحرجة فى تاريخ المنطقة العربية، وأن وزارته فى خدمة العاضد (آخر الفاطميين) كانت بمثابة فترة انتقالية أو تمهيدية لتألق نجمة.

فى تلك الأثناء، كانت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة متسعة الأرجاء فيها خمس عواصم: دمشق، والرها وحلب، والموصل، والقاهرة. وكان نور الدين يلح على صلاح الدين الأيوبى فى مصر لاتخاذ الخطوات الحاسمة وإعلان نهاية الخلافة الفاطمية، حتى تعود مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية، وكان صلاح الدين يتحين الفرصة، إلى أن واتته تلك الفرصة أثناء مرض الخليفة الفاطمى، فاستبدل فى خطبة أول جمعه من سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م اسم الخليفة الفاطمى باسم الخليفة العباسى، وبعد ذلك بأسبوع واحد مات الخليفة الفاطمى دون أن يدرى أن دولة آبائه وأجداده قد زالت من الوجود، وأن التاريخ قد كتبه فى سجلاته كآخر الفاطميين فى مصر.

وجاء انفراد صلاح الدين الأيوبى بالسلطة فى مصر - كما قلنا سابقا، مقدمة لمرحلة حاسمة من مراحل الصراع ضد الصليبيين، إذ أن مصر بمواردها الهائلة وامكانياتها جعلت قامته السياسية أكثر طولاً. ثم جاءت وفاة نور الدين محمود فى شوال سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م وبعدها موت عدوه اللدود عمورى ملك بيت المقدس فى نفس السنة، فرصة طيبة لكى يوحِّد الجهود العربية ويؤكد زعامته للعالم الإسلامى.

وكانت الخطوة الضرورية لتأكيد تلك الزعامة تتطلب منه أن يعالج فى حزم ورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين محمود من منازعات وصراعات.

وبعد عدة تطورات سياسية أعلن صلاح الدين الأيوبى نفسه ملكا على مصر والشام بمباركة الخليفة العباسى سنة ١١٧٥م/ ٥٧٠هـ، ثم قضى نحو ست سنوات لترتيب الأوضاع الداخلية فى كل من مصر والشام استعداداً للمواجهة مع الصليبيين. فى الوقت الذى كان حريصاً فيه على تجنب المواجهة معهم على مستوى كبير. فبدأ بالتخلص من السودانيين الذين كان الفاطميون يستجلبونهم لحماية دولتهم، وكان عددهم يقترب من الخمسين ألف. كانوا يتآمرون عليه ويسببون كثيرا من القلاقل، فطاردهم حتى جنوب بلاد النوبة، وهناك أقام حامية مصرية لمراقبتهم ومنعهم من العودة. ثم أرسل شقيقه الأمير «شمس الدين توران شاه» على رأس حملة عسكرية كبيرة إلى اليمن، فتمكن من مد سلطانه ونفوذه

هناك، بعد أن وحّد قبائل اليمن على مذهبه ومذهب الخلافة العباسية السنى ـ وكان ذلك فى سنة ١١٧٣م/ ٥٦٩هـ. بعد ذلك شرع فى بناء سور ضخم حول مدينة القاهرة ليكفل لهما حماية كافية فى وجه أى غزو صليبى محتمل. وقد جاء موقع ذلك السور خلف سور القاهرة الذى كان «جوهر الصقلى» قائد «المعز لدين الله» الفاطمى قد بناه، وكان ذلك السور قد تهالك ودُمرت أجزاء كثيرة منه. ودعم صلاح الدين هذا السور الجديد بأبواب عالية سميكة مصفحة بالحديد، بلغ عددها خمسة عشر بابا. وبعد الانتهاء من بناء السور ـ الذى ما زالت بقاياه موجودة حتى الآن ـ شرع مهندس إنشاءاته «بهاء الدين قراقوش» فى بناء قلعة ضخمة بسفح جبل المقطم ليدير منها دفة الحكم وتساهم كذلك فى حماية القاهرة.

فى تلك الأثناء التى كان صلاح الدين يرتب فيها البيت قام الصليبيون بعدة غارات عبر شبه جزيرة سيناء، ووصلت قواتهم حتى بحيرات منطقة السويس (البردويل حاليا) كما شنوا غارات أخرى على شبه الجزيرة العربية، وحاول «رينالد دى شاتيون» أمير الكرك (جنوب الأردن) أن يقتحم البحر الأحمر ويغزو مكة والمدينة، لكى يتحكم فى حركة التجارة الدولية التى تمر بالبحر الأحمر، كما هاجم بعض موانى مصر والحجاز، ولكن الإسطول المصرى واجهه وسحقة تماما ورده على أعقابه خائباً.

وهكذا وجد صلاح الدين الأيوبى مبرراً قوياً لبدء عملياته ضد الصليبيين، وكانت قمة انتصاراته على الفرنج فى موقعة حطين، الواقعة إلى الغرب من بحيرة طبرية وإلى الشرق من مدينتى عكا وحيفا. وقد جرت تلك الموقعة يوم ٢٤من شهر ربيع الثانى ٥٨٢هـ/ ٤يوليه سنة ١١٨٧م. وكان من نتائجها أن فقدت مملكة بيت المقدس قواتها العسكرية الرئيسية، صحيح أن كوارث سابقة وقعت للصليبيين فى المنطقة العربية، وقتل بعض أمرائهم وأسر بعضهم الآخر، إلا أن ما حدث لهم فى حطين كان أخطر من ذلك بكثير، حيث تمكن جيش المسلمين بقيادة صلاح الدين من إبادة جيش الصليبيين إبادة تامة، ولم يبق منهم حياً إلا مائة وخمسين صليبيا ثم أسرهم جميعاً بما فيهم كبار القادة والأمراء.

وعلى مدى شهرين، بعد حطين، أخذت الجيوش الإسلامية تدخل المدن

والقلاع التى كان يحتلها الصليبيون، حتى لقد بلغ ما تم تحريره منها نحو خمسين موقعاً ما بين مدينة وقرية وقلعة حصينة.

ومع ذلك - ورغم كل هذه الانتصارات الباهرة إلا أن هدف صلاح الدين الأيوبى، وما عاهد المسلمين عليه، كان تحرير بيت المقدس.

ولهذا سار صلاح الدين بجيشه نحو القدس الشريف وحاصرها لمدة أسبوع حتى استسلمت له فدخلها يوم الجمعة ٢٧رجب سنة ٥٨٣هـ/ ٢أكتوبر ١١٨٧.

يقول ابن شداد.. فى كتابه: سيرة صلاح الدين: لما دخل صلاح الدين القدس بعد أن يسّر الله فتحها أعطى أهلها الأمان فى مقابل أن يدفعوا عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمسة دنانير وعن كل طفل ديناراً واحد. وبلغ ما تم جمعه نحو مائتين وعشرين ألف دينار. ومن عجز عن الدفع اعتبر أسيراً. وحرر صلاح الدين ثلاثة آلاف مسلم كانوا أسرى لدى الفرنج».

وقد أردنا أن نورد ما قاله ابن شداد، ليقارن القارىء ما فعله صلاح الدين عندما دخل القدس، بما فعله الصليبيون عندما دخلوها. فهو لم يسفك فيها دماً ولم يزهق روحاً، كما فعلوا حين سفكوا دم عشرة آلاف من أهلها عندما دخلوها. كل ما فعله صلاح الدين، عندما طلبت حاميتها الأمان واستسلمت أن فرض عليهم فدية زهيدة حتى لا يُعتبروا أسرى.

*****

الحملة الصليبية الثالثة

بعد موقعة حطين لم يتبق بأيدى الصليبين سوى صور وانطاكية وطرابلس وبعض القلاع والحصون المتناثرة هنا وهناك على أرض الشام.

وبعد ضياع القدس من بين أيديهم، ذهب كبير أساقفة صور فى جولة زار فيها بلاط عدد كبير من ملوك وأمراء الغرب الأوروبى لكى يستنجد بهم ويستنهض هممهم لكى يحملوا على المشرق العربى الإسلامى.

وقام البابا «جريجورى» الثامن ـ الذى لم يستمر فى كرسى البابوية أكثر من شهرين ـ بإرسال خطاب بابوى «لكل المؤمنين فى الغرب»! ذكّرهم فيه بأن فقدان الرها قبل أربعين سنة كان يجب أن يكون نذيراً لهم، كما وعدهم بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوا فى حملة صليبية جديدة، وفرض صياماً فى كل يوم جمعه على مدى خمس سنوات كاملة، والامتناع عن أكل اللحوم فى أيام السبت والأربعاء حتى يستردوا بيت المقدس. ولما مات البابا «جريجورى» الثامن واصل خليفته البابا «كليمنت» الثالث مهمة الاتصال بملوك أوروبا وفرض ضريبة مقدارها ١٠٪ على كل دخل وعلى الأملاك المنقولة سمّاها: عشور صلاح الدين، لتمويل الحملة الصليبية الجديدة.

واستجاب لدعوة البابا عدد من ملوك أوروبا على رأسهم: الإمبراطور الألمانى «فردريك بارباروسا» الأول، و«ريتشارد» الأول ملك انجلترا والذى كان يلقب بقلب الأسد، و«فيليب» الثانى ملك فرنسا.

وفى ١١مايو سنة ١١٨٩/ ٥٨٥هـ تحركت قوات الامبراطور الألمانى فردريك بارباروسا وسار عبر الطريق البرى الذى سارت عليه الحملتين السابقتين، ولكن الامبراطور لقى حتفه غريقاً فى أحد أنهار آسيا الصغرى وذلك فى ١٠ يونيه سنة ١١٩٠م/ ٥٨٦هـ وكانت تلك خساره فارحة لحقت بالجيش الصليبى قبل أن يصل إلى هدفه، وانتهى أمر الألمان بعد موت امبراطورهم بالمشاركة الرمزية فى تلك الحملة.

أما «ريتشارد» الأول ملك انجلترا و«فيليب أوغسطس» ملك فرنسا فقد وصلا

بقواتهما إلى صقلية بطريقين بحريين مختلفين وأمضيا شتاء ١١٩٠/ ١١٩١م فى نزاع حول الأمور الداخلية فى صقلية، وبعد ذلك أبحرا تجاه فلسطين حيث وصلا إلى مدينة صور الساحلية - التى كانت ما تزال بأيدى الصليبيين، ثم بدآ مسيرهما نحو عكا وحاصرت قواتهما المدينة حصاراً طويلا إمتد نحو عامين إلى أن سقطت فى أيديهم سنة ١١٩١م/ ٥٨٧هـ بعد أن دافع عنها أهلها دفاعاً مستميتاً.

وبعد الاستيلاء على عكا، زحف الصليبيون على ما جاورها من موانى المسلمين على البحر المتوسط واستولوا عليها.

بعد ذلك دخل الصليبيون فى مفاوضات مع صلاح الدين الأيوبى انتهت بعقد صلح الرملة سنة ١١٩٢م/ ٥٨٨هـ وبمقتضى هذا الصلح خضعت المساحة الواقعة على ساحل البحر المتوسط ما بين مدينتى صور ويافا للنفوذ الصليبى، بينما استمر صلاح الدين وقواته مسيطرين على كافة المناطق الأخرى التى كان المسلمون قد حرروها بما فى ذلك القدس مع السماح بحرية النصارى فى زيارة الأماكن المقدسة فى المدينة.

وهكذا كان حصار الحملة الصليبية هزيلاً بالقدر الذى خيّب آمال الأوروبيين والفرنج المقيمين تحت سماء الشرق العربى.

وسرعان ما تحولت الآمال الكبار التى عقدت على هذه الحملة إلى احباط، واتهامات حادة تبادلها زعماء الصليبيين.

أما صلاح الدين فقد مكث شهوراً قليلة فى بيت المقدس ثم اتجه إلى دمشق حيث انتقل إلى جوار ربه فى ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/ ٤مارس ١١٩٣م.

وبوفاة صلاح الدين الأيوبى توارت عن مسرح التاريخ شخصية ظلت ملء العين وموضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصرية. أعداء كانوا أم حلفاء.

ولكن الظروف التاريخية التى أنجبته لقيادة الأمة كانت لا تزال قائمة، فالصليبيون كانوا مازالوا موجودين فوق أرض الشام، كما أن خطر قدوم حملات صليبية جديدة كان لا يزال قائماً.

وفى ظل هذه الظروف جاء خلفاء صلاح الدين الأيوبى على غير شاكلته، إذ

أدت وفاته إلى تفسخ دولته فى الحال إلى قطع صغيرة يتنازع عليها الورثة من أبناء البيت الأيوبى وكان التوتر الذى ساد العلاقات بين الورثة الأيوبيين نعمة على بقايا الوجود الصليبى الذى كان يحتل حيزاً ضيقاً من أرض فلسطين ولبنان الحالية، ويمتد بحذاء الساحل من بيروت حتى يافا. وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية التى صارت عاصمتها عكا، بفترة سلام قاربت العشر سنوات. وهى فترة كانت كافية لأن يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المروّعة التى مرت بهم. وكان واضحاً أن قوات الصليبيين فى بلاد الشام لم تكن نداً للمسلمين، ومن ثم انعقدت آمالهم على قدوم حملة صليبية جديدة من أوربا لنجدتهم.

*****

الحملة الصليبية الرابعة

في السنة التى تولى فيها السلطان «العادل» الأيوبى منصب السلطنة الأيوبية فى القاهرة، أى سنة ١٢٠٠م/ ٥٩٦هـ، كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس وضرب مصر لا تزال تشغل بال الأوروبيين.

وحين رأى الصليبيون أن السلطان «العادل» يفرض نوعاً من الوحدة على أبناء البيت الأيوبى خافوا أن يعودوا إلى الموقف المرعب الذى عانوا منه كثيرا على أيام صلاح الدين الأيوبى.

وأدرك البابا والغرب الأوروبى والصليبيون فى الشرق أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية والضرورية لتأمين وجودهم فى بلاد الشام. وبات غزو مصر حتمياً لضمان استرداد ما حرّره صلاح الدين من أراضى مملكة بيت المقدس، بل وبيت المقدس ذاته.

وهكذا أخذ البابا «إنوسنت» الثالث على عاتقه مهمة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر.

وبدأت الاستعدادات لتجميع الحملة الجديدة، بيد أن مشكلة نقل القوات والعتاد الحربى إلى الشواطىء المصرية فرضت على قادة الصليبيين أن يدخلوا فى مفاوضات مع جمهورية البندقية التجارية التى كانت تملك أقوى وأكبر الأساطيل العاملة فى البحر المتوسط. وتمت المفاوضات، وتوجهت جيوش الصليبيين إلى البندقية لكى تنقلهم سفنها إلى شواطىء مصر ـ كان ذلك سنة ١٢٠١م/ ٥٩٧هـ لكنهم بعد سنة من هذا التاريخ كانوا يفرضون حصارهم على القسطنطينية العاصمة المسيحية بدلاً من القاهرة العاصمة الإسلامية. ثم اقتحموها وسلبوها ونهبوها وقتلوا أهلها المسيحيين على مدى ثلاثة أيام مرعبة. ثم أرسوا بها دعائم دولة جديدة تكون بديلا للامبراطورية البيزنطية وعقدوا مع حاكمها الجديد معاهدة فصّلوا بنودها حسب أهوائهم.. وبذلك أو عند هذا الحد انتهت تلك الحملة الصليبية الرابعة بعد أن نسى قادتهم هدفهم الأصلى وهو غزو مصر.

ومع أن البابا «إنوسنت» الثالث أدان انحراف الحملة عن هدفها المحدد لها، إلا

أنه سرعان ما تراجع عن ادانته وابتلع احتجاجه حين رأى إن سقوط القسطنطينية عاصمة البيزنطيين تحت سنابك الخيول الصليبية (الأوروبية الغربية) يمكن أن يحقق أمل البابوية القديم فى السيطرة على الكنيسة البيزنطية واخضاعها لسلطة البابا وكنيسته فى الفاتيكان.

إلا أن بعض الصليبيين الذين لم يوافقوا على الإغارة على العاصمة البيزنطية وتغيير هدف الحملة، واصلوا مسيرهم حتى شواطىء الشام، وهناك تعاونوا مع الصليبيين المستوطنين وشنوا هجوماً هزيلاً على مدينة رشيد المصرية ومدينة فوه القريبة منها، ولم يتجاوز هجومهم ذاك أكثر من خمسة أيام، عادوا بعده خائبين إلى عكا، كان ذلك سنة ١٢٠٤م/ ٦٠٠هـ.

وفى عكا سرعان ما أدرك الصليبيون استحاله قدوم حملة صليبية أخرى لنجدتهم، ومن ثم سعى ملك عكا لعقد هدنة مع السلطان العادل الأيوبى الذى رحب بعقدها، على اعتبار أن الهدنة والسلم الذى يسود زمنها سيجعل التجارة تزدهر ويتحقق من ورائها مكاسب كثيرة، كما أن الهدنة ستمكنه من القضاء على متاعبه الداخلية ونزاعه مع بقية الأيوبين.

وهكذا عقدت الهدنة لمدة ست سنوات إبتداء من آخر سنة١٢٠٤م/ ٦٠٠هـ.

وإذا كان المؤرخين الغربيين لا يعتبرون تلك الحملة الرابعة ضمن الحملات أو الحروب الصليبية، إلا أننا نعتبرها كذلك ارتباطاً بالهدف الذى خرج من أجله الصليبيين وهو غزو مصر.

حملة الأطفال الصليبية

من وسط الجو المشحون بالعواطف الدينية والذى كان يسود غرب أوربا، وبعد الحملة الصليبية الرابعة التى باءت بالفشل الذريع، خرج صبى فرنسى فى الثانية عشرة من عمره اسمه «ستيفن» من مدينة كلوى الصغيرة فى اقليم أوليانز، وظهر هذا الصبى أمام بلاط الملك الفرنسى «فيليب أوغسطس» فى سان دونى ومعه خطاب، وقال إن المسيح شخصياً أعطاه له لكى يوصله للملك، وزعم «ستيفن» أن العناية الإلهية اختارته لقيادة حملة من الأطفال ليستردوا مدينة القدس، بعد أن فشل الملوك والأمراء والبابا وكل الكبار فى استعادتها بسبب ذنوبهم وآثامهم.

واجتذب «ستيفن» بضع مئات من الأطفال من باريس ومن غيرها من أقاليم فرنسا، وتجمع حول الموكب عدد من صغار القساوسة. وسار موكب حملة الأطفال الصليبية حتى مرسيليا فى انتظار أن ينشق البحر أمامهم بمعجزة كتلك التى حدثت لنبى اليهود موسى عليه السلام. ثم جاءت سفن ونقلت عدداً كبيراً منهم إلى جهة مجهولة.

ويبدو أن أطفال ألمانيا أحسوا بالغيرة حين وصلت أنباء حملة «ستيفن» إلى حوض الراين، فخرجت من ألمانيا بعد أسابيع قليلة من رحيل ستيفن حملة أطفال أخرى يقودها صبى اسمه «نيقولا».

وانطلق موكبهم العجيب من مدينة «كولون» وسار عبر جبال الألب فى ايطاليا، وهناك انقسم إلى قسمين: قسم ركب السفن من ميناء بيزا، والقسم الآخر وصل إلى ميناء برنديزى. وعلى أرض إيطاليا تخلَّفت أعداد كبيرة من أولئك الأطفال بسبب الجوع والبرد أو الخوف من ركوب البحر. أما الذين رحلوا بالفعل فإن أحداً لم يعرف أبداً ماذا جرى لهم على وجه اليقين.

*****

الحملة الصليبية الخامسة

لم تمنع حملة الأطفال بالطبع دون أعداد حملة صليبية جديدة ضد مصر، بل ربما كانت حافزاً لها.

والذى طلب تلك الحملة هذه المرة وكان مُلحاً فى طلبه: «يوحنا بريين» الذى تزوج «ماريا» وريثة مملكة عكا، وصار ملكا على الصليبيين فى فلسطين وذلك سنة ١٢١٠م/ ٦٠٧هـ.

واستجاب لطلبه بالطبع البابا «انوسنت الثالث» فأخذ يدعو لحملة صليبية جديدة فى أنحاء الغرب الأوروبى، ولكنه مات سنة ١٢١٦م/ ٦١٣هـ قبل أن تتجمع تلك الحملة. وخلفه على العرش البابوى «هونريوس الثالث» ليواصل نفس المسعى والهدف.

كان هدف تلك الحملة مصر، وكانت هناك أسباب عديدة تجعل الصليبيين يقررون النزول بقواتهم فى دلتا النيل بدلاً من ساحل فلسطين. أولها رغبة المدن التجارية الإيطالية (الممول الرئيسى للحملة) فى السيطرة على تجارة المتوسط، وضرب المنافسة المصرية فى عقر دارها بالسيطرة على ميناء دمياط، أهم موانى شرق المتوسط آنذاك، وثانى هذه الأسباب عسكرى، وهو أن هزيمة مصر، أو تحييدها على الأقل، خير ضمان لبقاء المستوطنات الصليبية فى أمان. وهناك بالإضافة إلى ذلك سبب نفسى أو معنوى، وهو استرداد الشرف العسكرى الذى تلطخ فى وحل «حطين» على يد «صلاح الدين».

بدأت قوات تلك الحملة فى الوصول تباعاً إلى عكا، وفى أوائل نوفمبر سنة ١٢١٧م. ٦١٤هـ خرج الصليبيون من عكا لكى يشنوا هجوماً مباغتا ضد مصر فى جيش ضخم لم تشهد بلاد الشام مثله منذ الحملة الصليبية الثالثة. إلا أن فوضى القيادة فى الجيش الصليبى الضخم جعلته عاجزاً عن القيام بأية عمليات عسكرية حقيقية، وسرعان ما عاد الجيش إلى أسوار عكا لكى يحتمى بها، وظل هادئاً حتى إبريل سنة ١٢١٨م/ ٦١٥هـ، حين وفدت قوات صليبية جديدة من أوروبا. فقرر مجلس الحرب الصليبى الذى اجتمع فى عكا مهاجمة دمياط على دلتا النيل، وعند

نهاية شهر مايو سنة ١٢١٨م/ ٦١٥هـ وصلت القوات الصليبية إلى ساحل دمياط على البحر المتوسط. وخرج «الكامل» أكبر أبناء الملك «العادل» الأيوبى وولى عهده للدفاع عن دمياط ضد الصليبيين الذين كانوا قد أقاموا معسكراً لهم على الشاطىء الغربى للنيل وأحاطوه بخندق يمنع المصريين من الوصول إليهم. وظل الوضع متجمداً قرابة أربعة شهور حتى إمتلك الصليبيون برج السلسلة على الشاطىء الدمياطى. وبدأ المصريون يقاتلونهم فى البر وفى النيل، إلى أن توفى الملك «العادل» فى جمادى الآخرة ١٢١٨م/ ٦١٥هـ، وعاد «الكامل» من دمياط ليواجه فى القاهرة مؤامرة انقلاب دبّرها أحد الأمراء ضده. وتفرقت جموع المدافعين عن دمياط فسقطت بأيدى الصليبيين فى ٢٧شعبان سنة ٦١٦هـ - ٥نوفمبر سنة ١٢١٩م.

وجدير بالذكر أنه قبل سقوط المدينة، وفى أثناء حصارها، كان السلطان الكامل قد انتابه اليأس من امكانية صمود دمياط، فأرسل يفاوض الصليبيين للجلاء عن مصر فى مقابل تنازله عن بيت المقدس - الذى كان ضمن حدود دولة الأيوبيين آنذاك - ويأخذوا وسط فلسطين والجليل، ويدفع لهم جزية عن الحصون التى تبقى بأيدى المصريين، ورغم أن العرض الذى عرضه الملك الكامل الأيوبى كان سخياً، إلا أن المندوب البابوى - المرافق للحملة - وقادة الحملة المتغطرسين الذين كانوا يريدون القاهرة بعد دمياط، بالإضافة إلى التجار الإيطاليين الذين كانوا المصدر الأساسى لتمويل الحملة وكانوا يريدون الاستيلاء على دمياط لتكون مركزاً تجاريا لهم إلى جانب مراكزهم التجارية المنتشرة فى البحر المتوسط. كل هؤلاء رفضوا ما عرضه الملك الكامل، وواحد فقط من بينهم كان يقبل عرض الملك الكامل ويرغب فى التفاوض هو «يوحنا برين» ملك الصليبيين فى فلسطين.

وعلى مدى ثمانية عشر شهراً كاملة، جمّد الصليبيون نشاطهم فى دمياط حتى وصلت قوات إضافية من أوروبا ومن عكا، فبدأوا يزحفون جنوباً حتى مدينة فارسكور - وذلك فى منتصف شهر يولية سنة ١٢٢١م/ ٦١٨هـ وهو وقت فيضان النيل السنوى الذى يشتد فى شهر أغسطس - وزحفت قوات الجيش المصرى لكى تحاصر الصليبيين قرب المنزلة. ثم بدأ فيضان النيل وفتحت الجسور فأغرقت كل

الطرق أمام الجيش الصليبى المحاصر. وعلى صفحة نهر النيل كانت سفن البحرية المصرية تستولى على سفن العدو ومعداته الحربية، وتقتل وتأسر ما لا حصر له من من الصليبيين الذين اضطروا إلى التقهقر والانسحاب إلى دمياط ومنها عادوا إلي عكا.

وهكذا غرقت أحلام الصليبيين بالاستيلاء على مصر فى أوحال الدنيا ووسط أمواج النيل الهائجة، ودخلت القوات المصرية دمياط بعد أن دحرت آخر الصليبيين بها فى التاسع من شهر رجب سنة ٦١٨هـ/ سبتمبر ١٢٢١م.

*****

الحملة الصليبية السادسة

كانت الحملة ضد دمياط آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط ولحسابها منفردة.

ومن ناحية أخرى فإن الحملات الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى اتخذت طابعاً مختلفا عن حملات القرن السابق عليه. فالحملة الثانية كانت قد جاءت رد فعل لسقوط إمارة الرها سنة ١١٤٤م/ ٥٤٧هـ على يد «عماد الدين زنكى»، كما أن الحملة الثالثة كانت استجابة للكارثة التى حاقت بالصليبيين بعد معركة حطين وسقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧م/ ٥٩٠هـ على يد «صلاح الدين الأيوبى».

أما حملات القرن الثالث عشر فكانت نتيجة الضعف الدائم الذى ألم بالمستوطنات الصليبية التى زرعت فى المشرق، ولم تبرأ منه منذ عمليات «صلاح الدين الأيوبى»، على الرغم من أن فرنج الشرق لم يواجهوا أى خطر حقيقى طوال الفترة الأيوبية من بعد صلاح الدين.

وعلى الرغم من أن شواطىء فلسطين شهدت فى هذا القرن (الثالث عشر) موجات متلاحقة من الفرسان والمغامرين وشواذ الآفاق والباحثين عن الفرص تحت راية الصليب، وعلى الرغم من أن بعض هذه الموجات كانت عاتيه تضم فيالق من الفرسان والمحاربين الأشداء، وبعضها كان أقرب إلى الرذاذ الخفيف، إلا أن هذا المدد المتواصل لم يستطيع أن يقدم شيئا للكيان الصليبى فى المشرق، والذى كان يمضى إلى نهايته المحتومة.

ولأن فشل حملة دمياط كان فى النهاية ضربة موجعة لهيبة البابوية، فقد أخذ البلاط البابوى يضغط بشدة من أجل شن حملة صليبية جديدة. وكان المرشح لقيادة تلك الحملة هو الامبراطور الألمانى «فردريك الثانى»، وهذا الفرديك (الذى كان معروفًا باسم أعجوبة الدنيا) لم يكن صليبيا مثل غيره من ملوك أوروبا الذين قادوا الحملات الصليبية السابقة، فقد ولد وترعرع فى صقلية فى ظل مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التى كانت مزدهرة آنذاك فى تلك الجزيرة ولم يكن

الإسلام بالنسبة له مجرد كتاب أو (قرآن)، كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار يستحقون الموت ـ كما هو المفهوم السائد لدى الأوربيين حينذاك ـ فقد كان ذلك الامبراطور يكن للمسلمين ودينهم وحضارتهم تقديراً كبيراً، وكان واسع العلم غزير المعرفة يجيد من لغات الدنيا آنذاك ست لغات: العربية واليونانية واللاتينية والإيطالية والألمانية والفرنسية.

ولكن كيف يكون امبراطور هذا حاله، على رأس حملة صليبية جديدة؟

فى الواقع إن فردريك الثانى، لما تولى العرش سنة ١٢١٥م/ ٦١٨هـ، أخذ شارة الصليب (أو رمز قيادة الصليبيين) من البابا «انوسنت الثالث» لكى يضمن تأييده له فى عرش الامبراطورية الذى لا يخلو من صراعات ومؤامرات تُحاك حوله. كما أن زواجه من يولادنا إبنة الملك الصليبى الراحل «يوحنا بريين» ملك الصليبيين فى فلسطين جعله ملكاً على بيت المقدس ومسئولاً عن صليبيى الشرق، إلا أنه كان عازفاً عن القيام بحملة صليبية، لأن كان يطمح إلى بسط نفوذه على كل إيطاليا بما فيها أملاك البابوية ومدن الشمال التجارية الغنية، ولذلك كان يماطل فى الوفاء بنذره الصليبى رغم استلامه لشارة الصليب من البابا.

وكانت هناك مراسلات بين الامبراطور (اعجوبة الدنيا) وبين السلطان الكامل الأيوبى.

وأخيراً قَدِم الامبراطور إلى فلسطين سنة ١٢٢٨م/ ٦٢٥هـ ومعه جيش صغير لا يتجاوز عدده ٦٠٠ فارس نقلهم أسطول هزيل. وكان مشهدا دراميأ غريباً، ذلك الذى جرى على مسرح التاريخ آنذاك، إذ دعا البابا الغاضب من سلوك الامبراطور أعجوبة الزمان، إلى شن حرب ضده، بعد أن وقّع عليه عقوبة الحرمان الكنسى، بينما كان الامبراطور فى فلسطين يؤدى واجبه الصليبى! وكانت أهم نتائج هذه الحملة العجيبة، التى تجنبت القتال وإراقة الدماء، أن عُقدت هدنة مدتها عشر سنوات بين الكامل الأيوبى وفردريك الثانى، على أساس أن يتسلم الامبراطور مدينة القدس وبيت لحم، وشريطا من الأرض يصل بين عكا والقدس. ويبقى فى حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية، وفى المقابل يتعهد فردريك بمنع أى حملة صليبية من أوربا طوال فترة العشر سنوات.

وبعد أن توّج فردريك الثانى ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية وعاصمتها القدس (بدلاً من عكا) عاد إلى أوروبا فى يونية ١٢٢٩م/٦٢٦هـ بمكاسب لم تستطع أى حملة أخرى قبله أن تحققهما منذ حملة الصليبيين الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى.

أما العالم الإسلامى فقد رأى ـ بحق ـ أن تلك الهدنة التى عقدها الكامل الأيوبى كارثة حقيقية. وكان رد الفعل الشعبى عنيفاً ضد السلطان، الذى بعث بسفرائه إلى كل مكان فى العالم الإسلامى ليبرر فعلته النكراء واتفاقه المشين.

*****

الحملة الصليبية السابعة

أتاحت فترة هدنة العشر سنوات التى عقدها الكامل الأيوبى مع الامبراطور فردريك فرصة جيدة للصليبيين وزعماء الغرب الأوروبى لكى يستعدوا لجولة عسكرية جديدة ضد المسلمين.

وفى سنة ١٢٣٩م/ ٦٣٥هـ مات السلطان الكامل، وبعد عدة تقلبات فى الأحوال السياسية والصراع على العرش بين الأيوبيين فى الشام ومصر، تولى إبنه الصالح نجم الدين أيوب السلطنة سنة ١٢٤٠م/ ٦٣٦هـ.

وكان البابا جريجورى التاسع يستعد لهذا الموقف منذ صيف سنة ١٢٣٩م/ ٦٣٥هـ، ولم تلق جهوده المستمرة للتحريض على شن حملة صليبية جديدة استجابة كبيرة سوى فى فرنسا، حيث تجمع عدد من نبلائها تحت زعامة «تيبالد الشامبانى» ملك نافر، وبعد رحلة عاصفة فى البحر المتوسط وصلت هذه الحملة إلى عكا فى أول سبتمبر من سنة ١٢٣٩م/ ٦٣٥هـ، وفى غضون أسابيع قليلة تجمع جيش قوامه حوالى ألف فارس صليبى. وفى نوفمبر من السنة نفسها التقى هذا الجيش مع الجيش المصرى عند قرية صغيرة بين عسقلان وغزة، ودارت بينهما معركة قاسية كانت الهزيمة فيها من نصيب الصليبيين الذين تفرقوا بين قتيل وأسير.

بعد تلك المعركة تمكن الصالح نجم الدين أيوب من استعادة بيت المقدس وذلك سنة ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ. وكانت تلك هى الاستعادة الأخيرة لبيت المقدس الذى ظل بيد المسلمين والعرب بعد ذلك حوالى سبعة قرون قبل أن يدخلها جيش أوروبى آخر، وقبل أن يحتلها الصهاينة.

*****

الحملة الصليبية الثامنة

سنة ١٢٤٩م/ ٦٤٧هـ تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة جديدة ضد مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا.

وعلى وجه السرعة عاد الملك الصالح من الشام إلى مصر، لكى ينظم وسائل دفاعه ويستعد للمواجهة مع الصليبيين.

وتروى مصادر التاريخ العربية أن الامبراطور فردريك الثاني - صديق الأيوبيين وعدو البابا اللدود، قد أرسل أحد رجاله متخفيا فى زى تاجر إلى الملك الصالح الذى كان مريضا بدمشق يخبره بالاستعدادات الأوروبية لشن حرب جديدة على مصر.

وفي خريف سنة ١٢٤٨م/ ٦٤٦هـ أبحر الأسطول الصليبى من ميناء مرسيليا الفرنسى إلى قبرص حيث أمضى لويس التاسع فترة من الوقت فى انتظار تكامل قواته. وفى مايو سنة ١٢٤٩م/ ٦٤٧هـ أقلعت السفن تجاه الشواطىء المصرية. وفى العشرين من شهر صفر سنة ٦٤٧هـ/ ٤يونية ١٢٤٩م نزل الصليبيون قبالة دمياط، وأمامهم لويس التاسع يخوض مياه البحر الضحلة على الشاطىء، وهو يرفع سيفه ودرعه فوق رأسه، وانسحب المدافعون عن المدينة بسرعة بعد أن ظنوا أن ملكهم المريض قد مات، وفى أعقاب الجنود والفرسان المدافعون عن المدينة فر السكان المذعورين، وهكذا سقطت دمياط دون قتال.

دمياط التى دوّخت من قبل قوات الحملة الصليبية الخامسة بمقاومتها الشرسة. وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر السهل الذى حققوه دون قتال حتى أخذوا يدعمون وجودهم فى المدينة الأسيرة.

واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط المدينة التى بذل جهداً مضنياً فى تحصينها بمزيج من الألم والمرارة، وأعدم عددا من الفرسان الذين هربوا من دمياط، ونقل معسكره إلى مدينة المنصورة التى كانت قد خرجت إلى الوجود قبل ثلاثين سنة فقط. ومن هناك بدأت حرب عصابات ساهم فيها المصريون جميعاً،

وكثرت أعداد الأسرى الصليبيين الذين كانت تتخطفهم أيادى المجاهدين، وتعددت مواكب الأسرى فى شوارع القاهرة. ثم جاءت قوات عربية أخرى من بلاد الشام لمساندة المصريين. وفى خضم هذه الأحداث توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب فى يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ٦٤٧هـ/ ٢٠نوفمبر ١٢٤٩م، وأخفت زوجته «شجرة الدر» نبأ وفاته لكى لا تتأثر معنويات المجاهدين، وأرسلت تستدعى على عجل إبنه «توران شاه» من إمارته بالشام.

واشتدت المقاومة المصرية ضد القوات الصليبية التى كانت تتقدم نحو مدينة المنصورة، لكن كان بانتظارهم الأمير «بيبرس البندقدارى» - أحد مماليك الصالح نجم الدين الأيوبى وأحد قواده الأفذاذ والذى صار فيما بعد السلطان الظاهر بيبرس - الذى نظم الدفاع عن مدينة المنصورة بشكل جيد، وأخيرا انقشع غبار المعارك عن عدد كبير من القتلى الصليبيين، من بينهم عدد من النبلاء، ولم ينجح فى الهرب سوى عدد قليل من الفرسان هربوا على أقدامهم تجاه النيل ليلقوا حتفهم غرقاً فى مياهه.

أما الجيش الصليبى الرئيسى بقيادة الملك لويس التاسع، فكان لا يزال فى الطريق إلى المنصورة، ولا يعلم مصير الطليعة الصليبية التى أرسلها لاقتحامها.

وفى المحرم من سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م دارت رحى معركة رهيبة بالقرب من فارسكور كان نتيجتها القضاء التام على الجيش الصليبى. وأسر لويس التاسع نفسه، الذى تم نقله مكبلاً بالحديد إلى دار القاضى ابن لقمان بالمنصورة، حيث بقى سجيناً به فترة من الزمان حتى أفرج عنه لقاء فدية قدرها ٢٠٠ألف دينار، وبعد أن اقسم بألا يعادود الهجوم على مصر.

وقد قتل فى تلك الحملة وحدها من الفرنسيين حوالى خمسين ألفاً.

وأخيرا رحل لويس التاسع بعد الفشل الذريع لحملته، ولكنه بدلاً من أن يعود لبلاده فرنسا، رحل إلى فلسطين ومكث فى عكا أربع سنوات يحاول أن يجمع جيشاً صليبياً جديداً يرد به شرفه المهان فى المنصورة، ولما فشل فى مسعاه عاد خائباً ذليلا إلى بلاده وذلك سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م.

*****

حملة لويس التاسع على تونس
أو آخر الحملات

رغم الهزيمة المريرة التى تلقاها لويس التاسع على أيدى المصريين فى المنصورة، وما أصابه من خيبة أمل على يد الأمير «بيبرس البندقدراى» أبرز حكام دولة المماليك الفتية التى نشأت على انقاض الدولة الأيوبية بعد موت الصالح نجم الدين أيوب، فقد ظل يحلم بحملة صليبية جديدة.

لكنه شعر هذه المرة بأنه لن يستطيع مواجهة المماليك ودولتهم الفتية الناشئة فتوجه بحلمه إلى تونس متصوراً أنه يستطيع غزوها والاستيلاء عليها دون عناء أو مشقة، وبالفعل جهّز حملة صليبية جديدة واتجه نحو تونس سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م بعد أن أيده فى مسعاه أخوه «شارل إنجو» ملك صقلية، وعندما رست سفنه أمام شاطىء قرطاجنة، وجد أنه سيواجه قوات شديدة البأس من الأعراب إلى جانب جيش السلطان المستنصر سلطان الحفصيين، ولم يكد يمضى على وصوله إلى تونس أيام قليلة حتى اصابته حمى ومات، فعاد جيشه برفاته إلى فرنسا.

الفصل الثالث

تصفية الوجود الصليبى
فى الشام والمشرق العربى

بموت لويس التاسع فى تونس، وبعد فشل حملته الصليبية على مصر، انتهت فعليا الحملات الصليبية، وبعد قيام دولة المماليك القوية فى مصر اتجهت جهود سلاطينهم نحو القضاء على بقايا الامارات الصليبية على سواحل الشام.

فبعدما ثبّت السلطان «الظاهر بيبرس» ملكه على مصر والشام سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، اجتهد فى إنشاء قوة بحرية كبيرة جعل مركزها في كل من دمياط والاسكندرية (تلك القوة البحرية التى كان يفقدها المسلمون وكانت نقطة ضعفهم، ونقطة قوة الصليبيين فى نفس الوقت».

ثم استعد للتوجه إلى الشام والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من حصون ومراكز الصليبيين التى كانت ما تزال باقية فى بلاد الشام فتمكن من الاستيلاء على قيصرية ثم أرسوف فى سنتى ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م و٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م، ثم استولى على صَفَدْ التى كانت مركزا لأعمال العدوان الصليبية على بلاد المسلمين. وسببت انتصارات بيبرس هذه الرعب للصليبيين الباقين بالشام، حتى لقد سارعت الملكة «ايزابيلا» ملكة بيروت إلي عقد هدنة مع بيبرس سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م مدتها عشر سنوات.

وفي نفس هذه السنة استولى السلطان بيبرس على يافا ثم استولى على أنطاكية وكل المدن الداخلة فى نطاق إمارتها.

وفى سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م هاجم بيبرس إمارة طرابلس، وبدأ بالاستيلاء على بعض حصونها مثل حصن الأكراد وحصن عكا وعندما تولى السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، استعاد مدينة اللاذقية سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م وكانت آخر المعاقل الصليبية التابعة لإمارة انطاكيا، ثم بعد ذلك فى سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٨٩م استولى على طرابلس، وهى ثالثة الإمارات الصليبية فى الشام.

وبعد تولى الاشرف خليل عرش السلطنة المملوكية خلفا لأبيه السلطان قلاوون سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، وجه همته إلى القضاء على آخر قواعد الصليبيين فى الشام، وهى عكا التى كانت تمثل الميناء الرئيسى للصليبيين فى الشام وموطىء قدمهم على ساحل البحر المتوسط، فزحف نحوها وفرض عليها حصارا لم يدم

أكثر من ثلاث وأربعين يوما سقطت بعدها، بعد ان ظلت أسيرة فى أيدى الصليبيين أكثر من مائة سنة.

وبعد عكا سقطت بقية المدن والمعاقل الصليبية تباعاً، وزالت دولة الصليبيين فى فلسطين إلى غير رجعة، اللهم إلا إذا اعتبرنا أنهم رجعوا سنة ١٩٤٨م عندما اغتصب اليهود فلسطين العربية وأعلنوا فيها عن قيام دولتهم إسرائيل، وهذا بالطبع صحيح حيث أن كلاً من الصليبيين الذى وجهوا حملاتهم نحو الشرق العربى الإسلامى، واليهود الصهاينة نوع واحد من الإستعمار الاستيطانى البغيض.

الفصل الرابع

تصفية الوجود الصليبى

فى جزائر البحر المتوسط (قبرص ورودس)

رأينا كيف اهتم السلطان الظاهر بيبرس بإنشاء قوة بحرية كبيرة جعل مركزها فى دمياط والإسكندرية. وكيف قضى هو ومن بعده السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل على الوجود الصليبى فى الشام. ولكن رغم الجهود العظيمة التى بذلوها فى تصفية كل قواعد الصليبيين بالشام، إلا أنه كانت هناك قاعدتان صليبيتان تشكلان خطراً على الشرق الإسلامى وتهدد أمن المسلمين، وهما جزيرتى قبرص ورودس المواجهتان لسواحل الشام ومصر فى البحر المتوسط.. فجزيرة قبرص كانت دائما المحطة التى تتوقف فيها الحملات الصليبية قبل أن تستكمل مسيرتها نحو الشام أو نحو مصر. وتحولت منذ أن استولى عليها ريتشارد قلب الأسد أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة، إلى ملجأ لمقاتلى الصليبيين يلجأون إليه كلما سقطت قاعدة من قواعدهم فى الشام. وشيئاً فشيئا أصبحت الجزيرة وكراً صليبيا تنطلق منه بين الحين والآخر سفنهم للاغارة على شواطىء المسلمين أو لقطع الطريق على سفن المسلمين التى تحمل تجارتهم. وقد حدث سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م أن انطلقت من تلك الجزيرة أكثر من سبعين سفينة تحمل جنداً من البندقية وجنوا (مدينتان ايطاليتان) ومن قبرص ذاتها، فى حملة تستهدف الاغارة على مدينة الاسكندرية وتخريبها. وبعد أن رست تلك السفن أمام شواطىء الاسكندرية اقتحم الجنود الصليبيون المدينة وانطلقوا يقتلون ويذبحون ويروّعون وراح ضحيتهم آلاف الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ، وحملوا معهم وهم عائدين حوالى خمسة آلاف أسير من الرجال العزل الذين لم يتمكنوا من الهرب.

حدث هذا فى وقت كان أمراء المماليك الذين يحكمون مصر والشام مشغولون بصراعهم على كرسى السلطنة والحكم أكثر من انشغالهم بأمر العدو الذى ما زال يتربص بهم ويتحين الفرصة للاعتداء عليهم. ولعلهم كانوا فى حاجة إلى هذا الدرس القاسى الذى نبّههم إلى خطورة ذلك الوكر الصليبى: قبرص وإلى ضرورة القضاء عليه. ولذلك وضع الملك الأشرف بارسباى ـ وهو آخر العظماء من سلاطين المماليك فى دولتهم الثانية (دولة المماليك البرجية) على عاتقه تنفيذ تلك المهمة التى اعتبرها مقدسة، كما اعتبر صلاح الدين الأيوبى من قبله تحرير بيت المقدس مهمة مقدسة ونجح فى «حطين» فى إنجازها، لذلك قام الأشرف بارسباى ببناء عدد كبير من السفن واعداد المقاتلين والبحارة واستعد لغزو جزيرة

قبرص والاستيلاء عليها، وقد تم له ما أراد بعد ثلاث حملات: الأولى، وكانت تمهيدية سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م، أبحرت من دمياط وأغارت على الجزيرة واقتحمت ميناءها «ليماسول» وخرّبته ونهبت ما فيه وأسرت كثيرا من سكانه واستكشفت أوكار القراصنه على ساحل الجزيرة. أما الحملة الثانية فكانت سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م، وكانت أكبر من الأولى حيث انضمت إليها فى طرابلس ـ التى اتجهت إليها أولا ـ كثير من السفن التى صنعت هناك لهذا الغرض، تمكنت تلك الحملة من الاستيلاء على كثير من أراضى الجزيرة والقضاء على اسطولها البحرى. ولكنها تراجعت وهى فى طريقها إلى العاصمة نيقوسيا بعد أن علم قائدها بأن البندقية (فى ايطاليا) قد أرسلت قوة بحرية كبيرة لمعاونة القبرصيين، فاكتفى بما أحرزه من انتصار وقرر العودة إلى مصر محملاً بالغنائم والأسرى. أما الحملة الثالثة والأخيرة والتى استولت على قبرص فكانت سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م، وقد هيّأ لها الأشرف بارسباى كل سبل ووسائل النصر، أبحرت السفن من الإسكندرية واتجهت رأسا إلى قبرص، وتمكنت من دخول نيقوسيا والسيطرة عليها بعد هزيمة القوات المدافعة عنها وأسر ملكها «جانوس» الذى أقتيد إلى الإسكندرية ضمن من أقتيد من الأسرى، إلى أن افتدى نفسه بمائتى ألف دينار، وهكذا تم القضاء على ذلك الوكر الصليبى.

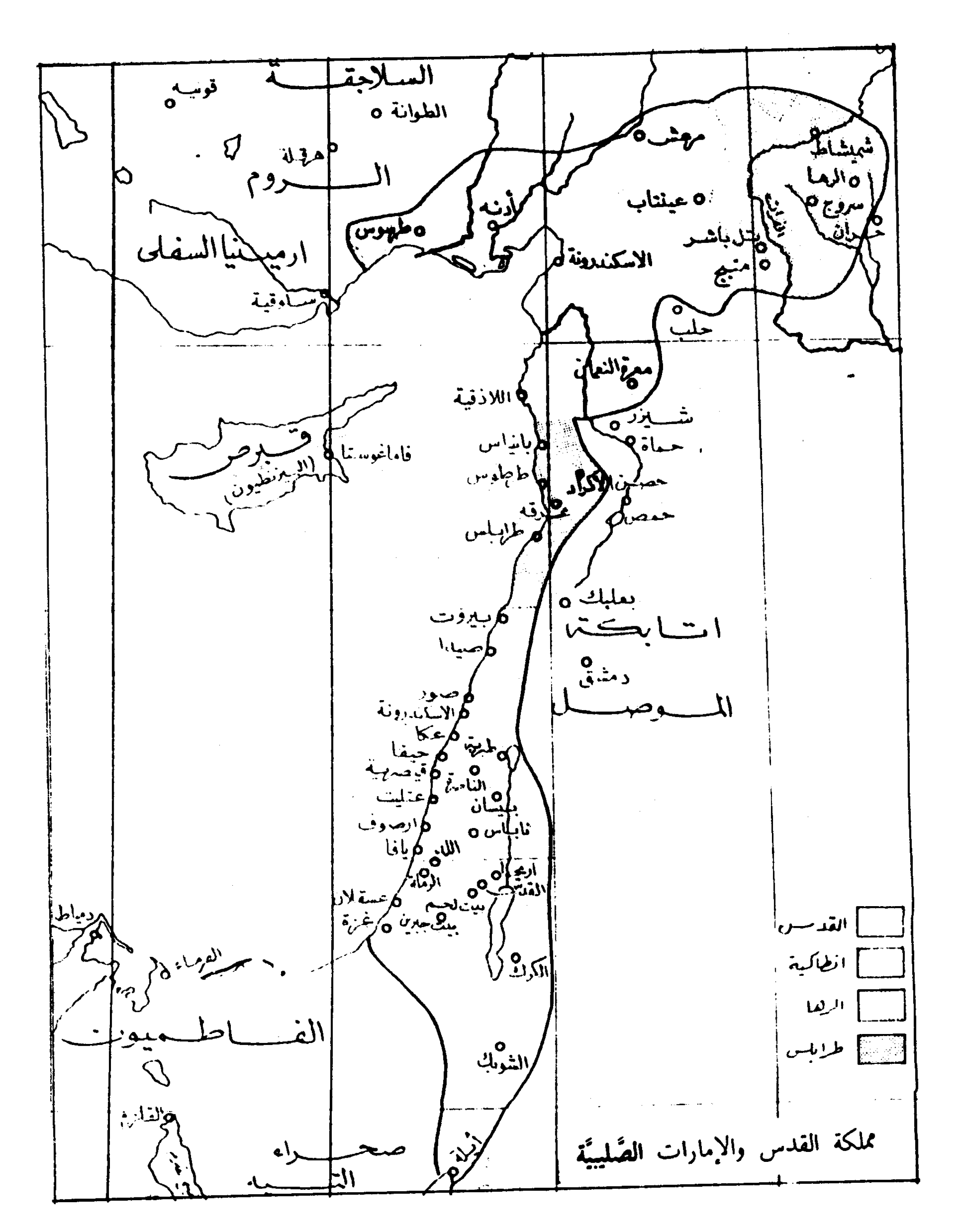
وقد ظلت قبرص تابعة لسلطنة المماليك حتى استولى العثمانيون على مصر سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م. فانتقلت تبعيتها اليهم، وظلت تابعه لهم حتى تنازل العثمانيون عنها للإنجليز بمقتضى اتفاق مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م، وظل الإنجليز يحتلونها حتى سلّموها لليونان بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩م. ونشأت منذ ذلك الحين ما سمى «مشكلة قبرص»، لأن الاتراك القبارصة المسلمين المقيمين بالجزيرة ثاروا على الحكم اليونانى بقيادة الزعيم التركى المجاهد رءوف دنكتاش الذى نجح بمعاونة تركيا فى الاستقلال بالجزء الشمالى من الجزيرة.. ومازالت تلك المشكلة قائمة حتى الآن وقابلة للتفجر فى أى وقت.

أما جزيرة رودس ـ أو الوكر الثانى للصليبيين ـ التى أعلن السلطان بارسباى عن عزمه على الاستيلاء عليها بعد الاستيلاء على قبرص، ولم يعش حتى يحقق

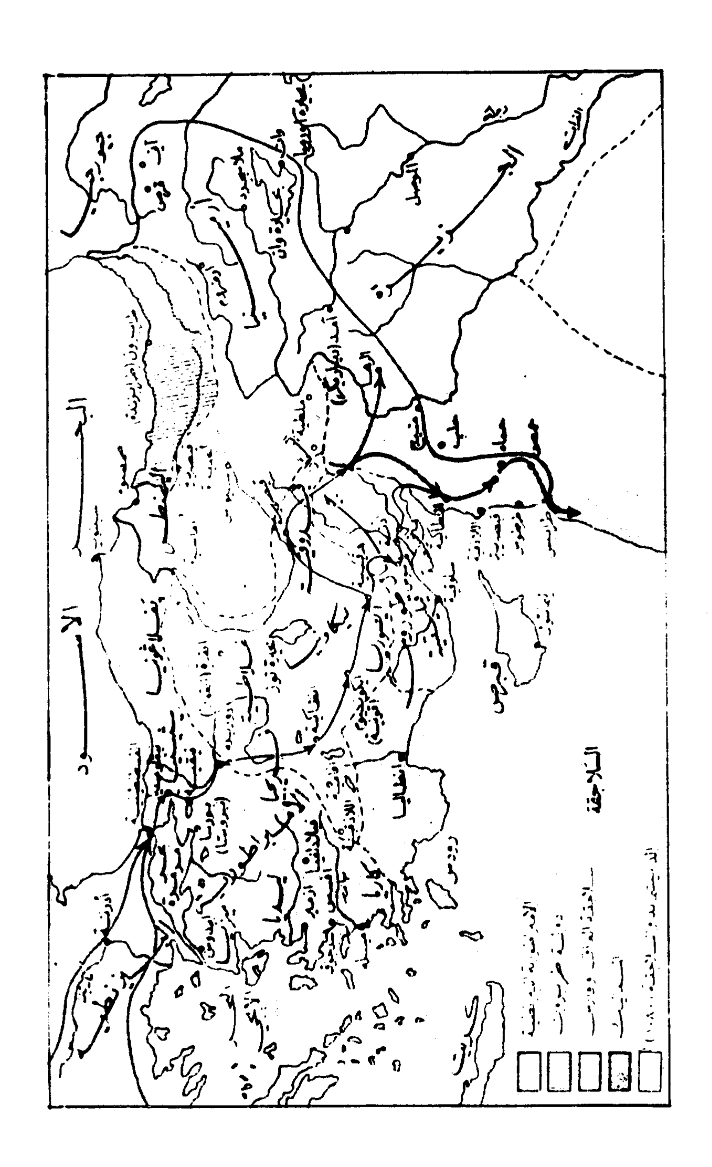
ما عزم عليه، فقد قام خليفته السلطان جقمق بتسيير ثلاث حملات للاستيلاء عليها: الأولى سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م والثانية سنة ٨٤٧هـ ١٤٤٣، والثالثة سنة ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م. ولم توفّق الحملات الثلاث فى الاستيلاء على الجزيرة، وعقد صلح بين أهل رودس وسلطنة المماليك، إلى أن غزا الاتراك العثمانيون مصر ودخلت مصر بكل أملاكها ضمن الدولة العثمانية، وانتقلت مسئولية فتح رودس إلى الاتراك العثمانين الذين حاولوا الاستيلاء عليها سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م ولم يوفقوا إلى أن تمكن سليمان القانونى سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م من الاستيلاء عليها، بعد أن تكبد خسائر فارحة. وظلت الجزيرة تابعه لتركيا إلى أن غزاها الإيطاليون سنة ١٩١٢م واستولوا عليها، ثم أعطيت لليونان بمقتضى معاهدة الصلح التى أعقبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٧م. وظلت تحكم حكماً عسكريا محليا حتى سنة ١٩٥٥م. وهى اليوم إحدى مقاطعات اليونان.

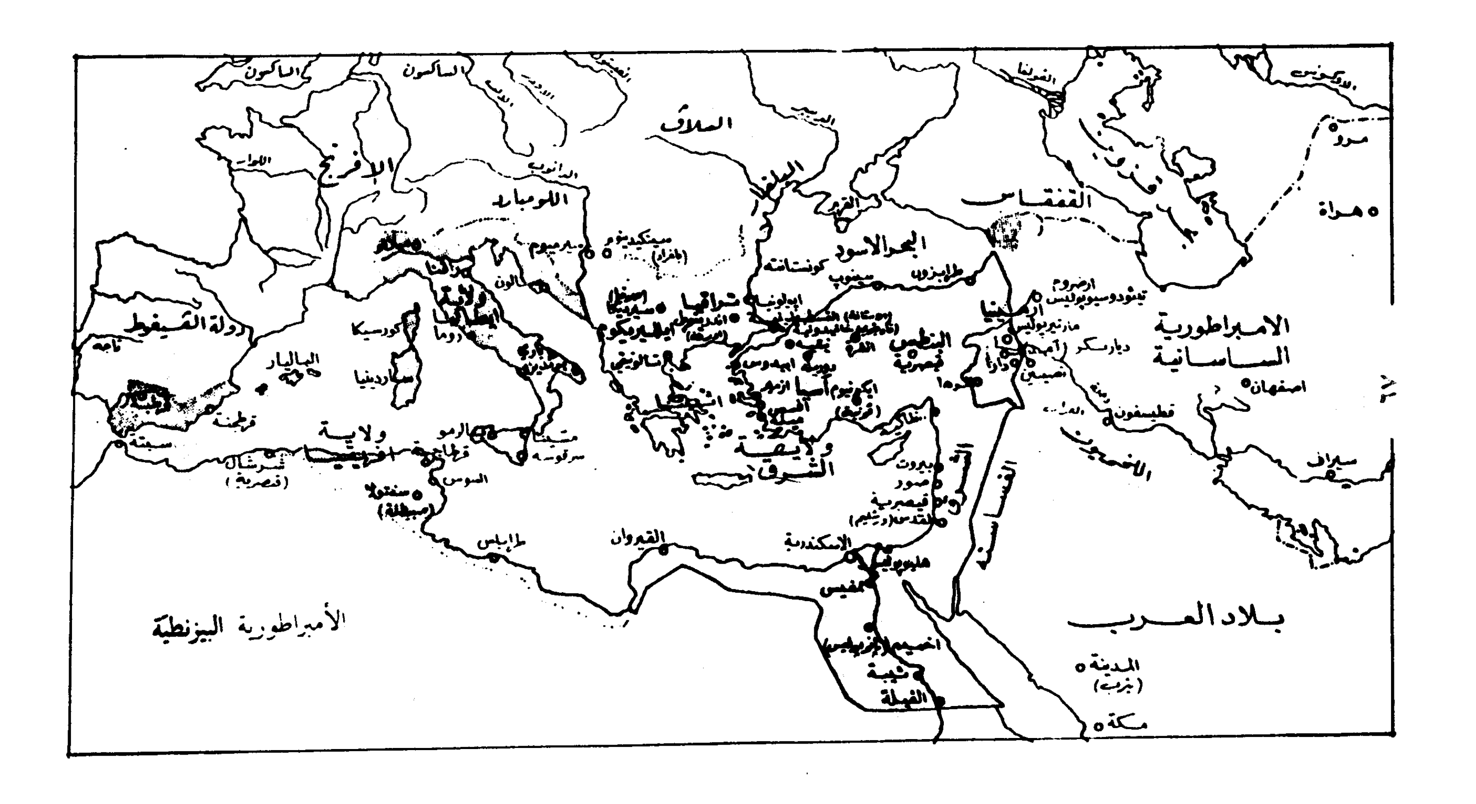


فرنسا وحوض نهر الراين



مملكة القدس والإمارات الصَّليبيَّة




الأمبراطورية البيزنطية
الساكسون
السلاف
الإفرنج
اللومبارد
دولة القيوط
كورسيكا
البالبار
سردينيا
روما
قرطجنة
ولاية افريقيا
سبتة
سرشال
(قيصرية)
السوس
طرابلس
القيروان
الاسكندرية
منفيس
أخميم
القبلة
البحر الاسود
كونستانتة
سينوب
طرابزون
ثراقيا
ولاية الشرق
بيروت
صور
قيصرية
القدس (أورشليم)
الغساسنة
القفقاس
الامبراطورية الساسانية
أرضروم
تيودوسيوبوليس
ديار بكر (آمد)
نصيبين
اصفهان
قطيسفون
سيراف
هراة
مرو
بلاد العرب
المدينة
(يثرب)
مكة

ملحق رقم (١)

الفاطميون فى مصر

	سنوات الحكم
١ـ المعز لدين الله .	٩٥٣ـ ٩٧٥
٢ـ العزيز بالله .	٩٧٥ـ ٩٩٦
٣ـ الحاكم بأمر الله .	٩٩٦ـ ١٠٢١
٤ـ الظاهر .	١٠٢١ـ ١٠٣٦
٥ـ المستنصر بالله .	١٠٣٦ـ ١٠٩٤
٦ـ المستعلى بالله .	١٠٩٤ـ ١١٠١
٧ـ الآمر بأحكام الله .	١١٠١ـ ١١٣٠
٨ـ الحافظ لدين الله .	١١٣٠ـ ١١٤٩
٩ـ الظافر بأمر الله .	١١٤٩ـ ١١٥٤
١٠ـ الفائز بنصر الله .	١١٥٤ـ ١١٦٠
١١ـ العاضد لدين الله .	١١٦٠ـ ١١٧١

ملحق رقم (٢)

الدولة الأيوبية

أولا: الأيوبيون فى مصر:

١ـ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.	١١٧٤
٢ـ العزيز عثمان بن صلاح الدين.	١١٩٣
٣ـ المنصور محمد ابن عثمان.	١١٩٨
٤ـ العادل أحمد ابن أيوب.	١١٩٩
٥ـ الكامل محمد ابن أحمد.	١٢١٨
٦ـ العادل محمد ابن محمد.	١٢٣٨
٧ـ الصالح نجم الدين أيوب بن محمد.	١٢٤٠
٨ـ المعظم توران شاه ابن نجم الدين.	١٢٤٩

ثانيا: الأيوبيون فى دمشق:

١ـ الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين.	١١٩٣
٢ـ العادل أحمد ابن أيوب.	١١٩٦
٣ـ المعظم عيسى بن أحمد.	١٢١٨
٤ـ الناصر داود ابن عيسى.	١٢٢٧
٥ـ الأشرف موسى ابن أحمد.	١٢٢٩
٦ـ الصالح إسماعيل ابن أحمد. (الفترة الأولى).	١٢٣٧
(الفترة الثانية).	١٢٣٩ـ ١٢٤٥
٧ـ الكامل محمد بن أحمد. (مصر والشام).	١٢٣٨
٨ـ العادل محمد ابن محمد.	١٢٣٨
٩ـ الصالح نجم الدين أيوب ابن محمد. الفترة الأولى	١٢٣٩
(مصر والشام) (الفترة الثانية).	١٢٤٥ـ ١٢٤٩
١٠ـ المعظم توران شاه ابن نجم الدين(مصر والشام).	١٢٤٩ـ ١٢٥٠

ثالثاً: الأيوبيون فى حلب:

العادل أحمد ابن أيوب.	١١٨٣
الظاهر غازى ابن صلاح الدين.	١١٨٦
العزيز محمد ابن غازى.	١٢١٦
الناصر يوسف بن محمد.	١٢٣٦ـ ١٢٦٠

رابعاً: الأيوبيون فى حماة:

تقى الدين عمر ابن توران شاه بن أيوب.	١١٧٨

المنصور أحمد ابن عمر.	١١٩١
الناصر قلج أرسلان بن سليمان	١٢٢٠
المظفر محمود ابن سليمان	١٢٢٩
المنصور محمد ابن محمود.	١٢٤٤
المظفر محمود ابن محمد.	١٢٨٤

خامسا: الأيوبيون فى حمص

المنصور شيركوه بن شاذى	١١٦٩
القاهر محمد ابن شيركوه.	١١٧٨
المجاهد شيركوه ابن محمد.	١١٨٦
المنصور إبراهيم ابن شيركوه ابن محمد.	١٢٤٠
الأشرف موسى ابن إبراهيم.	١٢٤٦ـ ١٢٦٣

ملحق رقم (٣)

المماليك

أولا: دولة المماليك البحرية:

شجرة الدر	
١ـ أيبك (المعز عز الدين).	١٢٥٠
٢ـ علي بن أيبك (المنصور نور الدين).	١٢٥٧
٣ـ قطز (المظفر سيف الدين).	١٢٥٩
٤ـ بيبرس البندقداري (الظاهر ركن الدين).	١٢٦٠
٥ـ بركة خان (السعيد ناصر الدين).	١٢٧٧
٦ـ سلامش (العادل بدر الدين).	١٢٧٩
٧ـ قلاوون (المنصور سيف الدين).	١٢٧٩
٨ـ خليل (الأشرف صلاح الدين).	١٢٩٠
٩ـ محمد بن قلاوون (الناصر). الفترة الأولى.	١٢٩٣ـ ١٢٩٤
الفترة الثانية	١٢٩٨ـ ١٣٠٨
الفترة الثالثة	١٣٠٩ـ ١٣٤١
١٠ـ كتبغا (العادل زين الدين).	١٢٩٤
١١ـ لاجين (المنصور حسام الدين).	١٢٩٦
١٢ـ بيبرس الجاشنكير (المظفر ركن الدين).	١٣٠٨
١٣ـ أبو بكر ابن الناصر محمد. (المنصور سيف الدين).	١٣٤١
١٤ـ كوجك ابن الناصر محمد (الأشرف علاء الدين).	١٣٤١
١٥ـ أحمد ابن الناصر محمد. (الناصر شهاب الدين).	١٣٤٢
١٦ـ إسماعيل ابن الناصر محمد(الصالح عماد الدين).	١٣٤٢
١٧ـ شعبان ابن الناصر محمد (الكامل سيف الدين).	١٣٤٥
١٨ـ حاجى ابن الناصر محمد (المظفر زين الدين).	١٣٤٦
١٩ـ الحسن ابن الناصر محمد (الناصر) الفترة الأولى.	١٣٤٧ـ ١٣٥١
الفترة الثانية.	١٣٥٤ـ ١٣٦١
٢٠ـ صالح ابن الناصر محمد (الصالح صلاح الدين).	١٣٥١
٢١ـ محمد بن حاجى (المنصور صلاح الدين).	١٣٦١
٢٢ـ شعبان. (الأشرف ناصر الدين).	١٣٦٣
٢٣ـ على ابن شعبان. (المنصور علاء الدين).	١٣٧٦
٢٤ـ حاجى. (الصالح صلاح الدين).	١٣٨١ـ ١٣٨٢

ثانياً: دولة المماليك البرجية (أو الشراكسه):

٢٥ـ برقوق (الظاهر سيف الدين).	١٣٨٢

٢٦- فرج ابن برقوق (الناصر) الفترة الأولى.	١٣٩٨- ١٤٠٥
الفترة الثانية	١٤٠٥- ١٤١٢
٢٧- عبد العزيز ابن برقوق (المنصور).	١٤٠٥
٢٨- شيخ المحمودى (المؤيد أبو النصر).	١٤١٢
٢٩- أحمد ابن شيخ المحمودى (المظفر).	١٤٢١
٣٠- ططر (الظاهر).	١٤٢١
٣١- محمد ابن ططر (الصالح).	١٤٢١
٣٢- برسباى (الأشرف سيف الدين).	١٤٢٢
٣٣- يوسف ابن برسباى (العزيز جمال الدين).	١٤٣٨
٣٤- جقمق (الظاهر سيف الدين).	١٤٣٨
٣٥- عثمان بن جقمق (المنصور فخر الدين).	١٤٥٣
٣٦- اينال العلائى. (الأشرف سيف الدين).	١٤٥٣
٣٧- أحمد ابن اينال (المؤيد شهاب الدين).	١٤٦٠
٣٨- خُشْقَدَم (الظاهر سيف الدين).	١٤٦٠
٣٩- يلباى المؤيدى (الظاهر سيف الدين).	١٤٦٧
٤٠- تمربغا (الظاهر).	١٤٦٨
٤١- قايتباى (الأشرف سيف الدين).	١٤٦٨
٤٢- محمد ابن قايتباى (الناصر) الفترة الأولى	١٤٩٦- ١٤٩٧
الفترة الثانية	١٤٩٧- ١٤٩٨
٤٣- قانصوه (الظاهر).	١٤٩٧
٤٤- قانصوه الأشرفى (الظاهر).	١٤٩٨
٤٥- جنبلاط (الأشرف).	١٥٠٠
٤٦- طومان باى (العادل).	١٥٠١
٤٧- طومان باى (الأشرف).	١٥١٦

مراجع الكتاب

(١) الكامل فى التاريخ.	ابن الأثير
(٢) سيرة صلاح الدين.	ابن شداد.
(٣) اطلس تاريخ الإسلام.	د. حسين مؤنس.
(٤) الحروب الصليبية.	د. على عبد الفتاح.
(٥) اضمحلال العصور الوسطى.	يوهان هويزنجا.
(٦) التاريخ الوسيط.	نورمان ف. كانتور.
(٧) معالم تاريخ الإنسانية.	هـ. ج.. ويلز
(٨) الحملة الصليبية الأولى.	جوناثان ريلى سميث
(٩) الهجمات الصليبية الغربية على العالم الإسلامى	د. أحمد شلبى
(١٠) ماهية الحروب الصليبية.	د. قاسم عبده قاسم
(١١) ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط «صليبية الأطفال».	عبدالغنى محمود عبدالعاطى
(١٢) الصليبيون فى الشرق.	زابوروف
(١٣) تاريخ الأقطار العربية.	كاوتسكى
(١٤) تاريخ ابن خلدون.	
(١٥) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.	ابن تغرى بردى
(١٦) بدائع الزهور فى وقائع الدهور.	ابن إياس
(١٧) السلوك فى معرفة دول الملوك.	المقريزى

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- مقدمة	٣
- **الفصل الأول**: نظرة شاملة على حال العالم قبيل الحروب الصليبية	٧
(١) الغرب الأوروبى	٩
(٢) الامبراطورية البيزنطية	١٤
(٣)الدولة السلجوقية	١٥
(٤) المشرق العربى	١٦
- **الفصل الثانى**: الحروب الصلبية	١٩
(١) الحملة الصليبية الأولى	٢١
(٢) الحملة الصليبية الثانية	٣٢
(٣) الحملة الصليبية الثالثة	٣٩
(٤)الحملة الصليبية الرابعة	٤٢
(٥) حملة الأطفال الصليبية	٤٤
(٦)الحملة الصليبية الخامسة	٤٥
(٧) الحملة الصليبية السادسة	٤٨
(٨) الحملة الصليبية السابعة	٥١
(٩) الحملة الصليبية الثامنة	٥٢
(١٠) حملة لويس التاسع على تونس	٥٤
- **الفصل الثالث**: تصفية الوجود الصليبى فى الشام والمشرق العربى	٥٥
- **الفصل الرابع**: تصفية الوجود الصليبى فى جزائر شرق البحر المتوسط	٥٩
- خرائط	٦٤
- ملاحق	٦٨
الفهرس	٧٤